المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية التربية
التربية الإسلامية والمقارنة

الخلاف
وتأصيل آدابه في التربية الإسلامية

إعداد الطالب
علي بن فراج بن علي العقلا

إشراف
د. / محمد عيسى فهيم

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة

١٤١٥هـ / ١٤١٦هـ

الفصل الثاني

نموذج رقم (٨)

أجازة أطروحه علمية في صيغتها النهائية بعد أجراء التعديلات المطلوبة

الاسم « رباعي » : علي بن فراج بن علي العقلا **الكلية** : التربية **القسم** : التربية الإسلامية والمقارنة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير **التخصص** : التربية الإسلامية

عنوان الأطروحه : « الخلاف وتأصيل آدابه في التربية الإسلامية » .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد ...

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الاطروحه المذكورة عاليه والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ٢٤/ ١١/ ١٤١٥هـ بقبول الاطروحه بعد اجراء التعديلات المطلوبة وحيث قد تم عمل اللازم .. فأن اللجنة توصي بأجازة الاطروحه في صيغتها النهائية المرفقة كمتطلب تكميلي للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ..

والله الموفق ،،،

أعضاء اللجنة

المشرف	مناقش من داخل القسم	مناقش من خارج القسم
الاسم: محمد عيسى فهيم	الاسم : د. السعيد محمود السعيد عثمان	الاسم : د. محمد بن عمر بن سالم بازمول
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

رئيس قسم التربية الإسلامية والمقارنة

يعتمد،،

د. / محمد جميل بن علي خياط

* يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحه في كل صفحه من الرسالة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : الخلاف وتأصيل آدابه في التربية الإسلامية

لما كان الخلاف من الأمور المانعة لوحدة الصف بين أفراد الأمة المسلمة ، مما ينتج ضعفها وعدم تقدمها ، كان البحث في تأصيل آداب الخلاف أمراً مهماً وخاصة في المجال التربوي ، ليساعد في ظهور جيل متفتح فكرياً ، يقبل الرأي الآخر متى كان قوياً .

وأجملت أسباب الخلاف – حسب نظر الباحث – في خمسة أمور :

١ – الهوى والتحيز .

٢ – الفروق الفردية .

٣ – الجهل وضعف المحصلة العلمية .

٤ – خطأ الموقف من الخلاف والمخالف .

٥ – ترك اتباع أصول وآداب الحوار والمناظرة .

وفي مقابل هذه الأسباب ، كان هنالك أصول لآداب الخلاف في التربية الإسلامية كالتالي :

١ – الموضوعية والتجرد .

٢ – مراعاة الفروق بين الناس .

٣ – العلم واحترام التخصص العلمي .

٤ – الفهم الصحيح لنوع الخلاف وطبيعة المخالف .

٥ – اتباع أصول وآداب الحوار والمناظرة .

وقد تم عرض أمثلة تربوية من تراث السلف الصالح بعد كل أصل من هذه الأصول لتقريب الصورة وتوضيحها .

عميد كلية التربية	المشرف	الطالب
د.عبد العزيز بن عبد الله خياط	د.محمد عيسى فهيم	علي بن فراج بن علي العقلا

الإهداء

سيدي الوالد الكريم

لسان حالي يقول :

« لاخيل عندك تهديها ولا مـــال

فليسعد النطق إن لم يسعد الحال »

فغيضٌ من فيض فضلكم ، وقليلٌ من كثيركم ، فاقبلوه من ابنكم .

وأسأل الله جل وعلا ، أن يمد في عمركم على طاعة .

ابنكم المحب

علي بن فراج العقلا

ذو القعدة / ١٤١٥هـ

شكر وتقدير

إن من حق كل من أعان ، ووجَّه ، وأرشد ، وسدَّد ، وتحمل وصبر ، أن أدعو له بظهر الغيب ، وأن أسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء .

وأخص بالذكر ، المشرف على هذه الرسالة : الدكتور محمد عيسى فهيم ، الذي لم يأل جهداً في التوجيه المفيد .

وأشكر السادة أعضاء لجنة المناقشة : فضيلة الدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول حفظه الله على ما أفاد به فجزاه الله خيراً ، وسعادة الدكتور السعيد محمود السعيد عثمان عضو هيئة التدريس بقسم التربية الإسلامية والمقارنة جزاه الله خيراً .

وأقدم شكري الجزيل للقائمين على هذا الصرح العلمي - جامعة أم القرى - وعلى رأسهم معالي مدير الجامعة د. راشد بن راجح على اهتمامه ورعايته ، وسعادة عميد كلية التربية د. عبد العزيز خياط وسعادة رئيس قسم التربية الإسلامية والمقارنة د. محمد جميل خياط ، وأعضاء القسم الموقرين على تشجيعهم ودعمهم .

فجزاهم الله خيراً ،،،،

الفصل الأول

تمهيد

ويتضمن :

- المقدمة .
- حدود الدراسة .
- أهمية الدراسة .
- أهداف الدراسة .
- منهج الدراسة .
- الدراسات السابقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(١)

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٣)

أما بعد :

فإن مما يتفق عليه ذوو البصر في حال الأمة المسلمة هي الحقيقة المرة المتمثلة في الضعف والهوان ، هذه الأمة التي دعيت في الكتاب الكريم بخير أمة اخرجت للناس ، وفي هذا الضعف والهوان مصداق لما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قيل : فمن قلة يومئذ؟ قال : لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن في قلوبكم ، وينزع الرعب من قلوب عدوكم ، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » (٤) .

---

(١) آل عمران / ١٠٢ .

(٢) النساء / ١ .

(٣) الأحزاب / ٧٠ - ٧١ .

(٤) الإمام أحمد بن حنبل : المسند ٥ / ٢٧٨ (نقلاً عن صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني ٢/ ١٣٥٩) .

وكما قرر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، فلا قلة اليوم في المسلمين عدداً ، فقد تجاوز تعدادهم الألف مليون نسمة ، ولكن غثاء كغثاء السيل لاختلافهم وتناحرهم وتفرقهم شذر مذر ، وهنالك أمثلة كثيرة وواضحة على هذا الإختلاف في شتى الجوانب الحياتية سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو تربوية وغيرها .

وفي كل مجالات الحياة ومناشطها ، تسهل رؤية مظاهر الخلاف والفرقة .

فمثلاً في ما يتعلق بالجانب السياسي ، نجد أن الرأي الواحد للدول المسلمة مفقود ، والوحدة في القرارات غير موجودة منذ سقوط الخلافة الإسلامية ، فلا توجد قضية تم مناقشتها دولياً وتم الخروج منها بقاسم مشترك بين الدول المسلمة ، كالموقف من أحداث كشمير أو أفغانستان ، بل إن محاولات الوحدة بين الدول المسلمة سابقاً باءت بالفشل كالوحدة بين مصر وسوريا وهذا يمثل درجة التفرق بين المسلمين في الجانب السياسي .

وكذا الأمر في مجالات الإقتصاد ، نجد اختلافاً كبيراً بين الحكومات ، فنجد أن التبادل التجاري بين الدول الإسلامية إقتصادياً قليل جداً ، مقارنة بتبادلها التجاري مع الدول غير المسلمة ، على الرغم من أن هذا التبادل الأخير يشمل مواداً منتجة من بلاد مسلمة ، وكذلك بين الناس فمن رأى فكرة اقتصادية وقد عمل بها ورأى جدواها ومشروعيتها ، يقوم بنقض فكرة غيرها على الرغم من جدواها ومشروعيتها عند اقتصادي آخر ، كمسائل التقسيط ، أو بعض الأفكار الإستثمارية ، دون الإستنارة بالشرع الواضح .

وفي المجال التربوي ، نجد أن المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي

الواحد قد ظهر اختلافها ، وقدمت مؤسسات تربوية معينة ، وأزيحت بل أزيلت مؤسسات تربوية أخرى غيرها ، وظهرت مشكلات خطيرة كالإزدواجية بل وإنعدام الرؤية وما ينتج عن ذلك من تخبط ، نتج عنه اختلاف السياسات التعليمية .

وظهرت أنماط سلوكية تدمر المجتمع وتذهب دينه ، كالخلافات بين الناس ، وإفساد ذات البين التي حذر ﷺ منها بقوله : « ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قالوا : بلى يارسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » (١) .

وما الشكاوي الكيدية والمنازعات التي تعج بها ساحات المحاكم إلا أكبر دليل على ذلك .

ولم يترك النزاع والخلاف ساحة إلا ودق فيها طنباً ، فوصل إلى مجال الأدب ، ولم يترك الأمر لذائقة أدبية محكومة بضوابط نقدية مقبولة ومرجعية صحيحة متفق عليها ، بل اختلط الحابل بالنابل وأدلى كل بدلوه فارغاً كان أم مليئاً ، فرأى الناس صحائف تسود لأجل قضية لا تقدم ولا تؤخر إذا قورنت بغيرها مثل قضية الخروج عن الأوزان الخليلية في نظم الشعر وغيرها مما شنع فيه أهل كل اتجاه على غيرهم أيما تشنيع ، وترك في الموضوع مناقشة ماهو أهم كالهجوم على ثوابت المجتمع ، وهل هو من ما يمكن قبوله أم لا ؟

وقبل هذا كله وبعده ، في مجال الأمور الشرعية ، نجد بعضاً من المسلمين يتعصبون لمذهب معين ، فلا يقبلون إلا فتوى المذهب وإن لم يحالفها

---

(١) الترمذي : الجامع الصحيح ، صفة القيامة ٧ / ٢١٠ ، بنحوه .

الصواب ، ويخالفون من يعارض قول مذهبهم ، وإن كان أقوى وأرجح من قول مذهبهم ، فيتعادى أهل المذهبين بعد اختلافهم على مسألة قد لاتعدو أن تكون من المستحبات .

ومن جميل ماذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع قوله : « وإن كان النزاع إنما هو في الاستحباب ، علم الإجتماع على جواز ذلك وإجزائه ، ويكون ذلك بمنزلة القراءات على بعض فإنه إذا علم أن ذلك جميعه جائز مجزىء في العبادة لم يكن النزاع في الاختيار ضاراً ، بل قد يكون النوعان سواء ، وإن رجح بعض الناس بعضها ، ولو كان أحدها أفضل لم يجز أن يظلم من يختار المفضول ولا يذم ولايعاب ، بإجماع المسلمين ، ولا يجوز التفريق بذلك بين الأمة ، ولا أن يعطى المستحب فوق حقه ، فإنه قد يكون من أتى بغير ذلك المستحب من أمور أخرى واجبة ومستحبة أفضل من ذلك بكثير ، ولايجوز أن تجعل المستحبات بمنزلة الواجبات بحيث يتمنع الرجل من تركها ويرى أنه قد خرج من دينه أو عصى الله ورسوله ، بل يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها بل الواجبات كذلك .

ومعلوم أن ائتلاف قلوب الأمة أعظم في الدين من بعض هذه المستحبات ، فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسناً ، وذلك أفضل إذا كانت مصلحة إئتلاف القلوب دون مصلحة ذلك المستحب » (١) .

وقد جاءت آيات الله تترى في الدعوة إلى الاجتماع ونبذ الفرقة والاختلاف والنزاع ، قال تعالى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ (٢) .

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية : خلاف الأمة في العبادات ، ص ٥٢ – ٥٣ .

(٢) آل عمران / ١٠٣ .

وقال تعالى :

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ (١) .

قال تعالى :

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ﴾ (٢) .

قال تعالى :

﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ (٣) .

وكذلك الاحاديث النبوية الشريفة كقوله صلى الله عليه وسلم « الجماعة رحمة والفرقة عذاب » (٤) ، وقوله : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » (٥) .

والاختلاف بين الناس لا يخلو منه عصر وقد قال تعالى :

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ﴾ (٦) .

فالاختلاف من سنن الله الجارية في خلقه ، والخلاف إذن ليس مقبولاً بإطلاق وليس مردوداً بإطلاق .

فالفروق الفردية بين الناس أمر واقع وإلا لتعطلت المصالح ، فقطعاً لا يمكن تصور المجتمع كلة لا يتقن إلا مهنة واحدة ، فمن يقوم بباقي المهن ؟ ؛ وكذلك في الأذواق ، وكما قيل مثلاً : لولا اختلاف الاذواق لبارت السلع ، فهذا

---

(١) آل عمران / ١٠٥ .

(٢) الأنعام / ١٥٩ .

(٣) الأنفال / ٤٦ .

(٤) الإمام أحمد بن حنبل : المسند ، ٢٧٨/٤ (نقلاً عن صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني ، ٥٩٧/١) .

(٥) الإمام مسلم النيسابوري : صحيح مسلم ، حديث رقم ١٢٢ .

(٦) هود ١١٨/١١٩ .

الاختلاف لاشك فيه أنه اختلاف مقبول لا إشكال فيه .

وكذلك فالمسلم مأمور بمخالفة الكافرين من يهود ونصارى وغيرهم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «خالفوا المشركين ، أحفوا الشوارب ، وأوفروا اللحى » (١) ، وقول : « خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولاخفافهم » (٢) ، فهذا النوع من الخلاف أمر واجب على المسلم ؛ فلا شك أنه من الخلاف المقبول المحمود .

وعلى النقيض مما سبق ، فهناك خلافات أدت إلى إزهاق أرواح مسلمة واستحلال أموال ، وهتك أعراض ، وسفك دماء مسلمة ، فلا شك أن هذا النوع من الخلافات مذموم ومردود جملة وتفصيلاً .

وما دام الأمر يشكل هذه الأهمية فلابد من البحث عن أسباب الخلاف وكيف يمكن حله ؟ ومحاولة إيجاد الحلول كالتزام آداب الحوار والموضوعية وغيرها من آداب الخلاف والتي ستكون فيها النظرة التربوية هي الضابطة لتناول ماسبق ، مما سيساهم في تحسين العملية التربوية والخروج بجيل متميز يكون أهلاً للنهوض بالأمة .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، فما هي الأسباب التي تؤدي للاختلاف ؟وكيف يتم تأصيل أدب الخلاف في المجال التربوي ؟

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب اللباس رقم ٥٨٩٣ ، بنحوه .

(٢) أبو داود : سنن أبي داود ، كتاب الصلاة رقم ٨٨ .

حدود الدراسة

إن طبيعة المشكلة المراد دراستها تجعل تحديد مجال زمني محدد أو مجال مكاني معين غير ممكن ، ويمكن تحديد البحث من خلال التساؤلات التالية :

أولاً : ماهو الخلاف وماهي أنواعه ؟

ثانياً : ما أسباب الخلاف ؟

ثالثاً : ماهي أصول أدب الخلاف في التربية الإسلامية للخروج من إشكالية أسباب الخلاف ؟

أهمية الدراسة :

إن البحث في هذا الموضوع مفيد في أمور عديدة منها أنه :

- يفيد المسلمين في توحيد كلمتهم على أساس كلمة التوحيد والشرع المطهر، ونبذ الفرقة والشتات ، لتتمكن الأمة من توحيد الجهود لتتسنم ذروة القيادة كما كانت في عصرها الذهبي الذي اجتمعت فيه كلمتها على الحق ، وإن حصل فيها خلاف فهي ملتزمه بآداب الخلاف .
- يفيد القائمين على تنشئة الأجيال في توجية العقول الناشئة إلى الإعتدال في التعامل مع الغير وأفكارهم .
- يفيد في تأصيل المنهج الإسلامي في أدب الحوار والمناقشة والخلاف .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى :

أولاً : التعريف بالخلاف وأنواعه .

ثانياً : التعرف على أسباب الخلاف .

ثالثاً : التعرف على أصول أدب الخلاف لحل أسبابه الخلاف ، مع ضرب نماذج من أدب الخلاف لدى المفكرين التربويين المسلمين .

منهج الدراسة :

إن طبيعة الموضوع تقتضي سلوك أكثر من منهج في بحثة كالتالي :

١ - المنهج الوصفي :

وهو المنهج الذي يقوم بوصف ماهو كائن ثم تفسيره وتحليلة والخروج بعد ذلك بنتائج ذات دلالة بالنسبة لموضوع البحث (١) ، ويستفاد من هذا المنهج ، عند وصف بعض المظاهر الواقعية للتدليل على آثار إشكالية الخلاف ، وكذلك الخروج باستنتاجات قد تساهم في حل الإشكالية .

٢ - المنهج التحليلي الإستنباطي :

وهو المنهج الذي يعتمد على قراءة النصوص والتعرف على عناصرها ومكوناتها ثم استنباط قاعدة منها (٢) .

---

(١) جابر عبد الحميد وأحمد خيري كاظم : مناهج البحث في التربية وعلم النفس ، ص ٤٠ .

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ، ص١٠٤.

الدراسات السابقة : (١)

لم يكن هنالك – حسب علم الباحث – دراسات أكاديمية تناولت الموضوع ولكن هناك عدة كتب تناولت موضوع الخلاف من جوانب مختلفة منها .

أولاً : الخلاف في الشريعة الإسلامية : عبدالكريم زيدان :

– عرف الاختلاف ؛ ونبه إلى الأمر الشرعي بعدم التفرق .

– حدد أنواع الخلاف بثلاثة أنواع ممدوح ومذموم وسائغ .

– بين شروط الخلاف السائغ وبين أسبابه وهو الخلاف بين العلماء في المسائل العلمية .

– بين الكلام حول « هل الإختلاف رحمة » ورجح ضعف الحديث المروي في ذلك ؛ وأنه لو افترض صحته لكان محمولاً على الخلاف السائغ .

– ركز هذا الكتاب على الخلاف بين العلماء في الفقهيات أكثر من غيره من أنواع الخلاف ولم يتناول الخلاف كإشكالية في المجال التربوي .

ثانياً : أدب الخلاف : صالح بن حميد :

– وصف حال الأمة المعاصر .

– عرف الخلاف بتعريف الجرجاني : " منازعة تجرى بين المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل " .

– حدد أنواع الخلاف بثلاثة أنواع كسابقه .

– ذكر مبادىء وآداب يجب مراعاتها عند الخلاف .

---

(١) هنالك غير ماذكر من الدراسات السابقة ولم تذكر هنا لعدم الاطلاع عليها قبل كتابة هذا الجزء من قبل الباحث أو لتشابه الموضوعات مع ماذكر .

- كان تركيز هذا الكتاب على الخلاف الفقهي بالدرجة الأولى ، وتطرق لمسائل دقيقة في هذا الموضوع مثل التفريق بين مدونات الفقه على المذاهب وبين كتب الفتوى وأنهى الكتاب بالمبادئ والآداب الواجب اتباعها عند حدوث الخلاف باختصار .

ثالثاً : أدب الإختلاف في الإسلام : طه جابر العلواني

- ذكر أن الخلاف يراد به مطلق المغايرة في القول أو الرأي أو الحالة أو الهيئة أو الموقف .
- ذكر أن الخلاف ظاهرة طبيعية ، وإذا لم يتجاوز حدوده والتزمت . آدابه ، كان ظاهرة إيجابية .
- ذكر عدة فوائد للخلاف الملتزم .
- عدد أقسام الخلاف من حيث الدوافع ، وذكر رأي العلماء في التحذير من الخلاف وبين تاريخ الخلاف .
- ذكر سمات للاختلاف عند الصحابة .
- ذكر حلولاً لمشاكل الخلاف .
- لم يركز الكتاب على الخلاف كإشكالية تربوية ، وكان هناك نقص في ذكر أسباب الخلاف بشكل عام وليس الخلاف الفقهي الذي أسهب في ذكر أسبابه .

رابعاً : خلاف الأمة في العبادات ومنهج أهل السنة والجماعة : ابن تيمية .

- أصل هذا الكتاب قاعدة ذكرها شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى .

– ذكر أمثلة للعبادات الظاهرة التي وقع فيها النزاع وآثار هذا النزاع .

– ذكر طريق الخلاص من الخلاف والتفرق باتباع أصلين :

أ – الجماعة .

ب – اتباع السنة .

– كان تركيز الكتاب على الخلافات الفقهية وهذا يبدو واضحاً من عنوان القاعدة وإن كان الأصلان اللذان ذكرهما للخلاص من الخلاف من أهم الأسس للخروج من الخلاف بل ومن كل شر .

خامساً : التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم : ابن السيد البطليوسي .

– ذكر أن الأسباب الموجبة للخلاف ثمانية كالتالي :

الأول : اشتراك الألفاظ والمعاني .

الثاني : الحقيقة والمجاز .

الثالث : الإفراد والتركيب .

الرابع : الخصوص والعموم .

الخامس : الرواية والنقل .

السادس : الاجتهاد فيما لانص فيه .

السابع : الناسخ والمنسوخ .

الثامن : الإباحة والتوسع .

– وذكر لكل نوع أمثلة تنبه قاريء الكتاب على بقية أمثلة السبب .

سادساً : آداب البحث والمناظرة : محمد الأمين الشنقيطي .

وأصل هذا الكتاب مذكرة من وضع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، مقررة على السنتين الأولى والثانية بكلية الدعوة وأصول الدين بالرياض .

- قسم الكتاب إلى قسمين :

الأول : وفيه مقدمات منطقية وغيرها مثل :

- أنوا ع العلم الحادث .
- الموضوع والمعمول .
- النظر والفكر في الاصطلاح .
- أقسام الدال واللوازم .
- مباحث الألفاظ .
- تمييز القضايا .
- مباديء التصورات .
- شروط المعرفه .
- العكس وأقسامه .
- مقاصد التصديق .
- القياس وأقسامه .

الثاني : ومما فيه :

- تعريف الفن « المناظرة » .
- تقسيم الكلام وتجري فيه المناظرة .

- التعريفات .
- تسمية طرفي المناظرة .
- الغضب والمكابرة .
- النقض وأقسامه .
- تقسيمات المعارضة .
- المصادرة .
- المعاندة والمجادلة والجواب الجدلي وانتهاء المناظرة .
- آداب المتناظرين .

وغير ذلك من آداب البحث والمناظرة .

وختم الشيخ كتابه بمقارنة بين ما يسميه المتكلمون مذهب السلف ومذهب الخلف مع احقاق الحق وابطال الباطل على الطرق المعهودة في المناظرة وبذلك يستفيد الطالب ليتدرب على رد الشبه وابطال الباطل بطريق المناظرة .

وكتاب آداب البحث والمناظرة سيفيد الباحث في هذه الرسالة خاصة في أصل اتباع أصول وآداب الحوار والمناظرة .

الفصل الثاني

الخلاف وأنواعه

ويتضمن :

- بين يدي الموضوع .
- تعريف الخلاف .
- الفرق بين الخلاف والاختلاف .
- أنواع الخلاف .
- أمر الإسلام بالائتلاف ونبذ الفرقة .

بين يدي الموضوع

« الحمد لله مسبغ النعم ، ومسوِّغ القِسَم ، وباري النَّسَم، وموجده بعد العدم ، وباعث العظام الهامدة والرمم ، والمخالف بين الهيئات والشيم ، حكمةً تاهت في فهمها عقول ذوي الحِكَم . خلق الأجسام من أضداد متنافرة وابتدعها بقدرته ، وألف نقائضها بحكمته ، حتى أبرزها للعيان ، متغايرة الصور والألوان ، متفقة الأشكال ، مخترعة على غير مثال ، وخالف بين الآراء والاعتقادات ، كما خالف بين الصور والهيئات ، وأخبرنا في ذلك مع واضح الآيات ، فقال عز من قائل :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (١) .

وقال جل جلاله :

﴿ ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ﴾ (٢) .

وبين لنا أنه قدير على غير ما أجرى به العادة فقال :

﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ (٣) .

ونبهنا ألطف تنبيه على ما في هذا الخلاف الموجود في البشر ، المركوز في الفطر من الحكمة البالغة ، وأنه جعله إحدى الدلائل على صحة البعث ،

---

(١) الروم – ٢٢ .

(٢) هود – ١١٨/١١٩ .

(٣) الأنعام – ٣٥ .

الذي أنكره من ألحد في أسمائه ، وكفر بسوابغ نعمائه ، فقال – وقوله الحق ، ووعده الصدق :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لايعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ (١) ، (٢) .

فالخلاف بين الناس ، حقيقة واقعية ، لله سبحانه وتعالى فيها حكمه بالغة ، فلا قيام للحياة ، ولانشوء للعلاقات بين الأفراد إن كانوا ذوي فهم واحد ، ومقدرة واحدة ، فتفاوت الأعمال ، والمهام ، والاتجاهات ، والقدرات ، والاستعدادات ، وما إلى ذلك ، يتطلب التفاوت فيما بينهم ، وكل ميسر لما خلق له كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

وإذا صفت النفوس ، وتجردت ، وتحررت العقول من شراك الهوى ، وترفعت ، وصار كلٌ يطلب الحق والأصلح ، كان الخلاف تلاقحاً بين العقول ، مثمراً خصوبة للأفكار والآراء والاجتهادات ، ورافعاً لشأن الأفراد والأمم ، وفيه يزود كل صاحبِ رأيٍ مخالفَه ، بالأدلة والبراهين والإثباتات التي توصل – في رأي صاحبها – إلى الصواب ، ويدلي الآخر بدلوه ، فتزداد الحصيلة العلمية للجميع ، نتيجة لتعدد الآراء ، فتكون المسألة التي فيها الخلاف ، دُرِسَت ودُرِس كل جوانبها وأبعادها ، ومن النقاش ينبلج النور ،

---

(١) النحل – ٣٨ – ٣٩ .

(٢) ابن السيد البطليوسي : التنبيه على الأسباب التي أدت إلى الاختلاف بين المسلمين ، ص٢–٣« بتصرف يسير » .

(٣) الإمام البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب التوحيد رقم ٧٥٥١ (فتح الباري ، ٥٣٠/١٣) .

فإما إلى اتفاق في الرأي بين الطرفين ، وإما إلى ذي أجرين وذي أجر واحد ما بقيت النفوس على سلامتها من الشحناء والبغضاء والفرقة .

وفي عصور تخلف المسلمين ، لم يكن الخلاف ، إضافة فكر إلى فكر ، وعقل إلى عقل ، ونور على نور ، بل كان الموقف من الخلاف ذريعة لإذابة الوشائج بين المسلمين ، وبث الفرقة بين الأمة .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض جوابه عن سؤال لأهل البحرين : «كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، إذا تنازعوا في الأمر ، اتبعوا أمر الله تعالى في قوله : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ (١) .

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة ، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية ، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين » (٢) .

فهذه الروح ، روح الألفة والعصمة وأخوة الدين ، هي التي كانت تحكم سلوك المتخالفين ، في عصور عزة الإسلام ، وقال رحمه الله : « وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط ، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا ، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة » (٣) .

---

(١) النساء / ٥٩ .

(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ١٧٢/٢٤ .

(٣) المصدر السابق ٢٤ / ١٧٢ .

ويشـهد تاريخ الأمة ، أنها أنجبت العظماء ، الذين لم يكن الخلاف لديهم إلا للحق ورفعتـه ، ولا مكان لحظوظ النفس ، وأهـوائها ، ورفعـتـهـا ، قـدر خردلة .

فيصف يونس بن عبد الأعلى الصدفي ، تلميذ الإمام الشافعي ، رحمه الله ، كيف كان الشافعي في حال الخلاف ، فيقول : « ما رأيت أعقل من الشافعي ، ناظرته يوماً في مسألة ، ثم افترقنا ، ولقيني ، فأخذ بيدي ، ثم قال : يا أبا موسى ، ألا يستقيم أن نكـون إخوانا وإن لـم نتـفق في مسألة » [1] ويقول تلميذه الآخر محمد بن عبد الحكم : « وما زال العلماء قديماً وحديثاً ، يرد بعضهم على بعض في البحث والتواليف ، وبمثل ذلك يتفقه العالم ، وتتبرهن له المشكلات » [2] .

وفي الجملة ، « كل مسألة حدثت في الإسلام ، واختلف الناس فيها ، ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولابغضاء ولافرقة ، علمنا أنها من مسائل الإسلام .

وكل مسألة حدثت وطرأت فأوجبت العداوة والبغضاء والتدابر والقطيعة ، علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء » [3] .

وفي الحديث المتفق عليه ، عن أبي بردة رضي الله عنه ، أن النبي صلى

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٠ / ١٦

(٢) نفس المرجع ، ١٢ / ٥٠٠ .

(٣) الشاطبي : الاعتصام ، ٢ / ٢٣٢ .

الله عليه وسلم ، بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن ، فقال : « بشرا ، ولاتنفرا، ويسرا ، ولاتعسرا ، وتطاوعا ، ولاتختلفا .

قال الراوي : كان لكل واحد منهما فسطاط يكون فيه ، يزور أحدهم صاحبه »[(١)] .

ففي هذا الحديث ، كان النهي عن ترك التطاوع ، ولم يكن النهي عن أن يصل كل مجتهد إلى رأي يختلف عن رأي الآخر ، بمعنى أن التوجيه النبوي الكريم كان نهياً عن جعل الخلاف ذريعة للفرقة والشقاق ، فمسوغات حصول الخلاف بين الطرفين موجودة أصلاً ، كالفروق الفردية في الفهم والاستنباط ، ووصول الدليل إلى أحدهما ، وعدم وصوله للآخر ، وغير ذلك ، فكان هذا التوجيه النبوي الكريم ، دعوة إلى الترابط والتماسك « تطاوعا » والألفة والمحبة ، ويظهر أثر ذلك في ماذكره الراوي في آخر الحديث : « فكان لكل واحد منهما فسطاط يكون فيه ، يزور أحدهم صاحبه » .

وهكذا حث الإسلام أتباعه على إعمال العقل ، والاجتهاد في الوصول إلى الحق والصواب ، وإن اختلفت السبل والمناهج « وإنما ذلك بمنزلة الطرق إلى مكة ، فكل أهل ناحية يحجون من طريقهم ، وليس اختيارهم لطريقهم لأنها أفضل ، بحيث يكون حجهم أفضل من حج غيرهم ، بل لأنه لابد من طريق يسلكونها ، فسلكوا هذه ، إما ليسرها عليهم وإما لغير ذلك ، وإن كان

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد ، رقم ٣٠٣٨ (فتح الباري ٦/١٨٨) ، بنحوه .

الجميع سواء »[١] .

وعلم الخلاف « علم يعد من أرفع العلوم قدراً ، وأعظمها شأناً ، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال ، وتمييز الحق من المحال ، ولولا تصحيح الوضع في الجدل ، لما قامت حجة ، ولا اتضحت محجة ، ولاعلم الصحيح من السقيم ، ولا المعوج من المستقيم »[٢] .

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٤ / ٢٤٥ .

(٢) أبو الوليد الباجي : المنهاج في ترتيب الحجاج ، ص ٩ .

تعريف الخلاف

« (خلف) الخاء واللام والفاء ، أصول ثلاثة : أحدها : أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه ، والثاني : خلاف قدام ، والثالث : التغير » [١] .

ومن أمثلة الأصل الأول للكلمة : قوله تعالى : ﴿**جعل الليل والنهار خلفة**﴾[٢]. فالليل يجيء بعد النهار ويقوم مقامه ، وبالعكس ، وكذلك الخلافه سميت كذلك ، لأن الثاني يجيء بعد الأول قائماً مقامه .

ومجمل هذه الثلاثة الأصول تدور حول المغايرة ، وهي المقصود في قول الناس : اختلفوا في كذا وكذا .

والخلاف ، لفظ يدل على المغايرة والتضاد وعدم الاتفاق ، « خالفته مخالفة وخلافاً ، وتخالف القوم واختلفوا ، إذا ذهب كل واحد إلى خلاف ماذهب إليه الآخر ، وهو ضد الاتفاق » [٣] .

ويذكر ابن منظور في لسان العرب عن الخلاف مانصه : « عدم الإتفاق على الشيء بأن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخرين في حاله ، أو أقواله ، أو رأيه » [٤] .

ويقول الراغب الأصفهاني في المفردات : « الخلاف ، أعم من الضد ، لأن

---

(١) ابن فارس : معجم المقاييس اللغة ، ٢ / ٢١٠ .

(٢) الفرقان / ٦٢ .

(٣) الفيومي : المصباح المنير ، ١ / ١٧٩ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ،٩/ ٩٠- ٩١ .

كل ضدين مختلفان ، وليس كل مختلفين ضدين »[١] .

فمثلاً اللون الأسود واللون الأبيض مختلفان ، وهما في الوقت نفسه ضدان ، بينما اللون الأصفر واللون الأحمر مختلفان ، وليسا ضدين .

وقال المناوي : « اختلاف : افتعال من الخلف ، وهو مايقع من افتراق بعد اجتماع في أمر من الأمور » [٢] .

وعرف بعضهم علم الخلاف بقوله : « علم باحث عن وجوه الاستنباطات المختلفه من الأدلة الإجمالية أو التفصيلية الذاهب إلى كل منها طائفة من العلماء ، ثم البحث عنها بحسب الإبرام والنقض » [٣] .

وكذلك عرفه آخر : « علم يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية ، ودفع الشبه وقوادح الأدلة الخلافية ، بإيراد البراهين القطعية » [٤] .

ويستفاد من جميع ماورد من تعريفات ، أن الخلاف يمكن أن يطلق على مطلق المغايرة في أي أمر كان ، رأياً أو شكلاً أو غير ذلك .

وفي هذا البحث ، سيكون الخلاف في الآراء والأقوال والاستنباطات والميول والاتجاهات ، هو المقصود .

---

(١) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٢٩٤ .

(٢) عبد الرؤوف المناوي : فيض القدير ، ١ / ٢٠٩ .

(٣) عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٢١ .

(٤) صديق حسن خان القنوجي : أبجد العلوم ، ص ٢٧٨/٢ .

الفرق بين الخلاف والاختلاف

لقد اختلف المصنفون ، في الخلاف والاختلاف ، وهل هما بمعنى واحد ؟ أم أن لكل منهما معنى مختلفاً عن الآخر ؟ .

وممن ذهب إلى أن لكل منهما معنى مختلفاً ، أبو البقاء الكفوي في كتابه الكليات ، حيث قال : « الاختلاف هو أن يكون الطريق مختلفاً ، والمقصود واحداً ، والخلاف : هو أن يكون كلاهما - أي الطريق والمقصود - مختلفاً ، والاختلاف : ما يستند إلى دليل ، والخلاف : ما لا يستند إلى دليل ، والاختلاف : من آثار الرحمة ، والخلاف : من آثار البدعة » (١) .

وكذلك الإمام الشاطبي ، حيث فرق بينهما ، وقرر أن الخلاف يقصد به ماصدر عن الهوى المضل ، لا عن تحري الأدلة ، ولهذا لايعتد به ، لأنه ناشيء عن الهوى ، وأما الاختلاف - في رأيه - فهو ما يصدر عن المجتهدين من آراء ، واجتهادات ، واستنباطات ، في المسائل الاجتهادية ، التي لايوجد فيها نص قطعي (٢) .

ولكن ماذكر ، من تفريق بين الخلاف والاختلاف ، لايستند إلى أصل يرجع إليه - كما يقرر ذلك عبد الكريم زيدان - فالعلماء استخدموا اللفظتين في كثير من المواضع بمعنى واحد ، واستشهد بالعديد من أقوال الأئمة

---

(١) أبو البقاء الكفوي : الكليات ، ص ٦١ .

(٢) الشاطبي : الموافقات ٤ / ١١٠ ، ١٤٤ .

والعلماء ، التي أورد فيها كلتا اللفظتين دون تفرقة بينهما في المعنى [١] .

ويشهد لهذا القول أن من نظر في كتب العلماء ، حتى من رأى التفريق بين اللفظتين ، لوجد الاستخدام نفسه لكلتا اللفظتين ، ويأتي النص ، بهذه اللفظة ، وبتلك ، ولنفس المعنى .

فالمرجح أن لفظتي الخلاف ، والاختلاف ، لهما نفس المعنى ، وتستخدمان نفس الاستخدام ، وأما من فرق بينهما في المعنى ، واستخدم كل لفظة استخداماً مخالفاً لاستخدام اللفظة الأخرى ، فهو قد اصطلح لنفسه هذا التفريق اصطلاحاً خاصاً به ، ولامشاحة في الاصطلاح ، وليس الخطب هنا عظيماً ، كي يختلف فيه اختلافاً كبيراً .

(١) عبد الكريم زيدان : الخلاف في الشريعة الإسلامية ، ص ٢٢٥ .

أنـــــواع الخـــــلاف

هناك اعتباران رئيسان ، يتم على أساسهما تقسيم أنوا ع الخلاف :

الاعتبار الأول : اعتبار الخلاف بحد ذاته .

الاعتبار الثاني : من ناحية قبوله وذمه .

الاعتبار الأول : الخلاف بحد ذاته

الخلاف في الأصل نوعان :

النوع الأول : خلاف التنوع .

النوع الثاني : خلاف التضاد .

أولاً : خلاف التنـوع :

وهو أن يكون كلا الوجهين ، أو القولين ، حقاً ، ولايقتضي الخلاف بينهما ، نفي القول الآخر ، أو التضاد ، وخلاف التنوع يكون على وجوه متعددة ، يكون فيه قول كل مخالف أو فعله حقاً ، ولاتضاد بينهما كالتالي :

١ - أن يكون كل واحد من القولين ، أو الفعلين ، حقاً مشروعاً ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف فيها وقال : « كلا كما محسن » (١) .

وكذلك اختلاف أنواع صفة الأذان ، والإقامة ، والاستفتاح وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنازة .

٢ - أن يكون كل من القولين ، في معنى القول الآخر ، ولكن العبارتين مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس ، في التعبير عن المسميات وغير ذلك .

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الأنبياء رقم ٣٤٧٦ ، فتح الباري ٥٩٣/٦ .

٣ – أن يكون المعنيان غيرين ، ولكن لاتنافي بينهما ، فهذا قول صحيح ، وهذا قول آخر صحيح ، وإن اختلف المعنى ، وهذا كثير جداً في المنازعات .

وفي هذا النوع من الاختلاف ، يكون كل صاحب قول مصيباً بلا جدال ، وقد تكون المسألة بين صواب وأصوب ، أو بين فاضل وأفضل ، كما في الحديث المتفق عليه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « لايصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » فصلى بعض الصحابة في الطريق الصلاة في وقتها ، وبعض أخرها حتى وصلوا إلى بني قريظة بعد فوات وقت العصر، فلم يعنِّف الرسول ﷺ أحداً منهم (١) .

وكذلك من هذا الباب ، عندما اختلف الصحابة في قطع الأشجار ، أو تركها فقطع قوم وترك آخرون ، فقال تعالى ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** ﴾ (٢) .

ومن ذلك أنساك الحج من تمتع وقران وإفراد ، فكلها أنواع مقبولة في الشرع ، وإن كان بعضها أفضل ، ولكن كلها مقبول (٣) .

فالخلاف بين العلماء – كالمذاهب الأربعة مثلاً – غالباً يكون من خلاف التنوع ، ولكن التعصب المذهبي يجعله خلافاً مذموماً .

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المغازي رقم ٤١١٩ ، فتح الباري ٧/٤٧١ .

(٢) الحشر / ٥ .

(٣) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ١ / ٣٤ ومابعدها .

ثانياً : خلاف التضاد :

وهو أن يكون القولان متنافيين ، يقتضي أحد القولين فيهما إبطال القول الآخر .

والخطب في أمر اختلاف التضاد ، أشد منه في اختلاف التنوع ، لأن القولين هنا يتنافيان ، فداعي الفرقة والتنازع أقرب ، إلا عند من رحمه الله ، وفهم نوع الخلاف [١] .

ومن هذا النوع ماورد في كتاب الله الكريم ، عن أنبيائه داود وسليمان ، صلوات الله وسلامه عليهما ، حيث يقول تعالى :

﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ [٢] .

فخص سليمان بالفهم ، وأثنى عليهما بالعلم والحكم [٣] .

وكذلك حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ ، فله أجر » [٤] فهنا حصل الخلاف الذي ليس فيه إلا مصيب واحد ، أي أن أحدهما أخطأ ، فكان الخلاف هنا من باب خلاف التضاد ، وعلى الرغم من ذلك ، كان كلاهما مأجوراً ، لامأزوراً .

---

(١) سيأتي تفصيل لمسألة فهم نوع الخلاف في الفصل الثالث .

(٢) الانبياء - ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) ولما ذكر من مسائل تفصيل لطيف في اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٢/ ٣٧ - ٣٩ .

(٤) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الاعتصام بالسنة رقم ٧٣٥٥ ، (فتح الباري ، ١٣/ ٣٣٠).

الاعتبار الثاني من ناحية قبول الخلاف وذمه

يمكن تقسيم الخلاف بناءًا على هذا الاعتبار إلى نوعين :

النوع الأول : الخلاف المقبول .

النوع الثاني : الخلاف المذموم .

أولاً : الخلاف المقبول :

وهذا النوع من الخلاف ، ينقسم إلى قسمين :

أ – الخلاف المحمود .

ب – الخلاف السائغ .

أ - الخلاف المحمود :

وهو ما يكون من فعل نتج عن اتباع أوامر الشرع ، كمخالفة المؤمنين للمشركين ، ونهي الإسلام عن التشبة بالكفار ظاهراً وباطناً ، كما في قوله عز وجل : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين** ﴾ (١) .

وكذلك أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في الأمر بمخالفة اليهود ومخالفة الكافرين حتى في المظاهر .

---

(١) الجاثية / ١٨ – ١٩ .

ب - الخلاف السائغ :

وهو خلاف الآراء في الأمور ، والمسائل التي يسوغ فيها الخلاف ، وليس فيها من أمر يقطع الخلاف قطعاً باتاً ، بل الأمر متردد بين القولين ، ولايمكن القطع بأحدهما لرفع الخلاف ، ويبقى هذا النوع من الخلاف مقبولاً ، مابقيت المودة ، والمناصحة ، وإن كان الخلاف فيها من خلاف التضاد ، «ووجدنا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من بعده قد اختلفوا في أحكام الدين ، ولم يتفرقوا » [١] .

ثانياً الخلاف المذموم :

وهو النوع من الخلاف ، الذي يؤدي إلى الشر ، والفرقة ، ويسبب العداوة ، والبغضاء ، والشحناء بين الناس .

ومن هذا النوع ، مخالفة الكافرين للمؤمنين ، الذي نبه القرآن عليه في قوله تعالى : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم ...** ﴾ [٢] .

وكذلك الخلاف بعد تبين الحق ، بسبب البغي ، وغير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ [٣] .

---

(١) الشاطبي : الاعتصام ، ٢ / ٢٣١ .

(٢) الحج / ١٩ .

(٣) الجاثية / ١٦ - ١٧ .

وقد يكون خلاف التنوع من باب الخلاف المذموم ، إذا اقترن بالهوى .

وأكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء والفرقة ، تجده من اختلاف التنوع ، حيث يكون كل من المختلفين مصيباً فيما قاله ، أو ذهب إليه ، أو بعضه ، مخطئاً في نفي ، أو جحود ما عليه خصمه ، في أمر يسع فيه الخلاف أو سائغ القول به ، كالقراءات ، واختلاف الأحكام باختلاف الأحوال [1] .

---

(١) الشاطبي : الاعتصام ، ٢/٢٠٠ .

أمر الإسلام بالائتلاف ونبذ الفرقة

لقد كان الأمر بالاجتماع ، ونبذ الفرقة ، من المقاصد العظيمة للإسلام ، بل إن الله ، عز وجل ، يذكر عباده بالنعمة التي أفاءها عليهم ، بتوحيد كلمتهم ، وصفهم ، حيث يقول عز من قائل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ (١) .

ويقول تعالى ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم : أن تعبدوا الله ، ولاتشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولاتفرقوا ، ويكره

---

(١) آل عمران / ١٠٢ .

(٢) الأنعام / ١٢٣ .

(٣) الأنفال / ٤٦ .

لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »[١] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من رسول الله ، صلي الله عليه وسلم ، خلافها ، فأخذت بيده فأتيت به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كلاكما محسن » ، قال شعبة : أظنه قال : «لاتختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »[٢] .

ويقول شيخ الإسلام ، ابن تيمية ، بعد إيراده هذه الآيات : « فانظروا رحمكم الله ، كيف دعا الله إلى الجماعة ونهى عن الفرقة .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء** ﴾[٣] .

فبرأ نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، من الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً، كما نهانا عن التفرق والاختلاف بقوله :

﴿ **ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** ﴾[٤] .

وقد كره النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من المجادلة ، ما يفضي إلى الاختلاف والتفرق ، فقد خرج على قوم من أصحابه ، وهم يتجادلون في القدر، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان وقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم ؟ أن تضربوا بكتاب الله ببعض ، إنما هلك من كان قبلكم بهذا ،

---

(١) الإمام مسلم النيسابوري : صحيح مسلم ، كتاب الأقضية - باب النهي عن كثرة السؤال ، رقم ١٧١٥ .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٥ .

(٣) الأنعام / ١٥٩ .

(٤) آل عمران / ١٠٥ .

ضربوا كتاب الله بعضه ببعض » قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : «فما أغبط نفسي كما غبطتها ، ألا أكون في ذلك المجلس » ، ...... ، ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا ، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة » (١) .

ولما كان الخلاف ، أمراً مفسداً لذات بين المسلمين ، فقد أكد النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، على أهمية إصلاح ذات البين ، في الحديث الذي قال فيه ، صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال صلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » (٢) .

كذلك وقوله صلى الله عليه وسلم في التأكيد على الجماعة : « وعليكم بالجماعة ، فإن يد الله على الجماعة » (٣) .

واهتم الإسلام بالتقريب والتأليف بين المسلمين اهتماماً عظيماً ، ففي صحيح مسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ، ويقول : استووا ،

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى .

(٢) سبق تخريجه في ص ٤ .

(٣) الترمذي : الجامع الصحيح ، كتاب الفتن ٦ .

لاتختلفوا فتختلف قلوبكم» [1] ، فإذا كان تحذير المصطفى الكريم ، صلى الله عليه وسلم في الاختلاف بين مناكب المسلمين ، في الصلاة بهذا القدر ، فكيف به في اختلاف قلوب المسلمين وتغايرها ، مما يذهب بأس الأمة .

(١) الإمام مسلم النيسابوري : صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، ١٢٢ .

الفصل الثالث

أسباب الخلاف

ويتضمن :

- الهوى والتحيز .
- الفروق الفردية .
- الجهل وضعف المحصلة العلمية .
- الفهم الخاطيء لنوع الخلاف .
- ترك أصول وآداب الحوار والمناظرة .

السبب الأول من أسباب الخلاف
الهوى والتحيز

في معجم مقاييس اللغة يقول ابن فارس في معنى الهوى :

« (هوى) الهاء ، والواو ، والياء : أصل صحيح يدل على خلو وسقوط . أصله الهواء بين الأرض والسماء ، سمي لخلوّه . قالوا : وكل خال هواء .

قال الله تعالى : ﴿ **وأفئدتهم هواء** ﴾ (١) أي خالية لا تعي شيئاً .

ويقال : هوى الشيء ، يهوي : سقط ، وهاوية : جهنم لأن الكافر يهوي فيها . والهاوية : كل مهواة ، والهوة : الوهدة العميقة ، وأهوى إليه بيده ليأخذه ، كأنه رمى إليه بيده إذا أرسلها ، وتهاوى القوم في المهواة سقط بعضهم إثر بعض .

وأما الهوى : هوى النفس ، فمن المعنيين جميعاً ، لأنه خال من كل خير ، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي .

قال الله تعالى ، في وصف نبيه عليه السلام :

﴿ **وماينطق عن الهوى** ﴾ (٢) (٣) .

ويقول الراغب الأصفهاني في مفرداته عن الهوى :

«الهوى : ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة ، وقيل : سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية ، وفي الآخرة إلى الهاوية .

والهُوي : سقوط من علو إلى أسفل ، وقد عظم الله ذم اتباع الهوى فقال : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ (٤) .

(١) إبراهيم / ٤٣ .

(٢) النجم / ٣ .

(٣) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ٦ / ١٥ - ١٦ .

(٤) الجاثية / ٢٣ .

وقال : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم** ﴾ (١) فإنما قاله بلفظ الجمع ، تنبيهاً على أن لكل واحد هوى ، غير هوى الآخر ، ثم هوى كل واحد لا يتناهى .

فإذاً اتباع أهوائهم ، نهاية الضلال والحيرة » (٢) .

ويقول الشاطبي : « ولذلك سميّ أهل البدع : أهل الأهواء ؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم ، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الإنقياد إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم ، واعتقدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك » (٣) .

فيتضح مما سبق ، أن مزلق الهوى ، من أشد المزالق خطورة وأكثرها صرفاً عن الحق وقبوله ، فهو خطير على الفرد في دينه ودنياه ، فلا يحكم في شيء إلا وفق هواه ، بل إنه لايرى ولا يسمع إلا وفق حكم هواه ، كما روي : حبك الشيء يعمي ويصم ، ومهما كان وضوح الحق ، وانبلاجه للناظرين – وفي وضوح كوضوح الشمس – وليس في النفس تجرد وإخلاص وملأها الهوى ، ما وصلت هذه النفس إلى الحق .

وانظر إلى سخف العقول عند أهل الجاهلية المشركين ، الذين كانوا في مجال تحد ، مع الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، حيث يورد الله عز وجل قولهم في الآية الكريمة :

﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة / ١٢٠ .

(٢) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٨٤٩ .

(٣) الشاطبي : الإعتصام ، ٢/١٧٦ .

(٤) الأنفال / ٣٢ .

فلم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه ، بل من جهلهم وظلمهم واتباعهم لأهوائهم كانوا يدعون على أنفسهم بأن تنزل عليهم الحجارة من السماء أو أن يأتيهم العذاب .

وهنا يتبين مدى التلازم ، بين الفكرة والتطبيق العملي لهذه الفكرة ، فقبول الحق – عندهم – ارتبط بالهوى ، ولم يرتبط بالحق نفسه ، فلهذا لم يكن ينفع أي دليل وأية حجة ، في ثني هؤلاء عن هواهم الذي اعتقدوه ، فمتى يستقيم الظل ، والعود أعوج ؟ كما قيل قديماً ، فلن يستقيم ظل لعود معوج إلا لصاحب هوى وميل ، فيريه هواه مايهواه ، لا ماهو كائن على بساط الحقيقة .

ولا يظنن ظان ، أن البينات إذا جاءت وظهرت ، آمن الكل بالحق ، فهذا غير واقع ، فمن كان في قلبه هوى قد أشربه ، لا يؤمن أبداً ، بل يبدأ التلبيس ، والاستكبار ، وغير ذلك من صوارف قبول الحق .

ويمثل يهود – لعنهم الله في كل زمان ومكان – اتباع الهوى في أسف صوره ، حتى قال عنهم الله ، عز وجل ، في كتابه العزيز :

﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ (١) .

ففي هذه الآية ، يتضح كيف كان الهوى سبباً للاستكبار ورد الحق ، بل وصل الأمر إلى قتل النبيين ، ويورد الإمام ابن القيم بعد ذكره لهذه الآية في بدائع الفوائد قوله : « فهذا الذي تسميه النظار والفقهاء ، التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك مالا تشتهيه ، دفعته ورددته ، وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه ، إما من تقليد من تعظمه ، أو موافقة ماتريده ، قبلته وأجزته ، فترد ماخالف هواك ، وتقبل ما وافق هواك » (٢) .

---

(١) البقرة / ٨٣ .

(٢) ابن قيم الجوزية : بدائع الفوائد ، ٤ / ١٤٤ .

إن الهوى قد يصبح معبوداً ، لدى بعض أهل الأهواء ، يحل لهم ويحرم عليهم وفقاً للهوى ، لا وفقاً للحق ، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ (١) .

ويقول عز من قائل :

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (٢) .

ففي هذه الآيات العظيمة ، بين الله عز وجل ، أن هؤلاء الضالين ، كانوا أولي علم ، ولم يكونوا جهلة ، فهم علموا الحق وعرفوه ولما يذعنوا له ، بل سيَّرتهم أهواؤهم وأغراضهم الشخصية لرد الحق ، والاستكبار والظلم ، فهم كما قال تعالى عنهم :

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (٣) .

« والجحود ، ضد الإقرار ، ولا يكون إلا مع علم الجاحد به أنه صحيح ، وماجاء جاحد بخير قط » (٤) .

ويشهد لما سبق ، من أن الهوى والتحيز ، هما من أهم أسباب ودواعي

(١) الجاثية / ٢٣ .

(٢) الأعراف / ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) النمل / ١٤ .

(٤) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ١/٤٢٦ .

الفرقة والخلاف ، على الرغم من أن البينات قد ظهرت ، ولاحت مثل فلق الصبح ، ما جاء في قوله تعالى :

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ (١) .

فلو كان مجرد ظهور البينات وتبين الحق من الباطل ، هو الذي يؤدي للحق ، لاتبعه الكل ، ولكن أهواء النفوس هي التي تحيد بهم عن قبول الحق ، وتؤدي إلى رده ، والوقوع في الخلاف والفرقة والنزاع والشقاق .

وكثيراً مايقع الإنسان فريسة لسلطان الهوى ، نتيجة لوقوعه في قول خطأ ، أو في فعل مجانب للصواب فتجده يبحث لهذا القول ما يسنده من أقوال سابقة ، أو لذلك الفعل مخرجاً صحيحاً ، لاستنكافه عن أن يبدو في حالة من وقع في الخطأ ، ويقول الشاطبي في ذلك : « وكذلك الأمر ، في كل مسألة فيها الهوى أولاً ، ثم يطلب لها المخرج من كلام العلماء ، أو أدلة الشرع ، وكلام العرب أبداً ، لا تساعه وتصرفه ، واحتمالاتها كثيرة ، لكن يعلم الراسخون المراد منه ، من أوله إلى آخره وفحواه ، أو بساط حاله أو قرائنه ، فمن لا يعتبره من أوله إلى آخره ، ويعتبر ما ابتنى عليه ، زل في فهمه ، وهو شأن من يأخذ الأدلة ، من أطراف العبارة الشرعية ، ولا ينظر بعضها ببعض ، فيوشك أن يزل ، وليس هذا من شأن الراسخين ، وإنما هو من شأن من استعجل ، طلباً للمخرج في دعواه » (٢) .

وهنا لك من النفوس ، من لا تذعن للحق ، ولا تطيق الاعتراف به ، لأسباب فرعية متعددة .

---

(١) آل عمران / ١٠٥ .

(٢) الشاطبي : الاعتصام ، ١ / ١٦٢ .

أبدع العلامة المعلمي في استعراض بعضها في كتابة : « القائد إلى تصحيح العقائد » ، منها :

« ومخالفة الهوى للحق في الاعتراف بالحق ، من وجوه :

الأول :

أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحق ، يستلزم اعترافه بأنه كان على باطل فالإنسان ينشأ على دين ، أو اعتقاد أو مذهب ، أو رأي يتلقاه من مربيه أو معلمه ، على أنه حق فيكون عليه مدة ، ثم إذا تبين له أنه باطل ، شق عليه أن يعترف بذلك ، وهكذا إذا كان آباؤه أو أجداده أو متبوعه على شيء ، ثم تبين له بطلانه ، وذلك أنه يرى ، أن نقصهم مستلزم لنقصه ، فاعترافه بضلالهم أو خطأهم ، اعتراف بنقصه ، حتى أنك لترى المرأة في زماننا هذا ، إذا وقفت على بعض المسائل التي كان فيها خلاف بين أم المؤمنين عائشة ، وغيرها من الصحابة ، أخذت تحامي عن قول عائشة ، لا لشيء ، إلا لأن عائشة امرأة مثلها، فتتوهم أنها إذا زعمت أن عائشة أصابت ، وأن من خالفها من الرجال أخطأوا ، كان في ذلك إثبات فضيلة لعائشة على أولئك الرجال ، فتكون تلك فضيلة للنساء على الرجال مطلقاً ، فينالها حظ من ذلك ، وبهذا يلوح لك سر تعصب العربي للعربي ، والفارسي للفارسي ، والتركي للتركي ، وغير ذلك ، حتى لقد يتعصب الأعمى في عصرنا هذا للمعري .

الثاني :

أن يكون قد صار له في الباطل ، جاه وشهرة ومعيشة ، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل ، فتذهب تلك الفوائد .

الثالث :

الكبر ، يكون الإنسان على جهالة ، أو باطل ، فيجيء آخر فيبين له الحجة ، فيرى أنه إن اعترف ، كان معنى ذلك اعترافه بأنه ناقص ، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه ، ولهذا ترى المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق تبين له ببحثه ونظره ، ويشق عليه ذلك ، إذا كان غيره هو الذي بين له » (١) .

والمتأمل في حال كثير من الأبحاث ، التي تدرس مجتمعاً متماثلاً واحداً ، ولكنها تخرج بنتائج مختلفة اختلافاً بيناً ليس باليسير ، الذي قد يعزى لمتغيرات دخيلة ، فهذا الاختلاف سببه التحيزات ، لدى بعض الباحثين ، فيعطون الاهتمام لما يريدون استنتاجه ، وينزعون الاهتمام عما سواه ، فيؤدي للخروج بنتائج خطأ لاتخدم الأهداف العلمية والعملية وهكذا تضيع الجهود الكثيرة نتيجة للتحيزات الذاتية .

---

(١) عبد الرحمن المعلمي : القائد إلى تصحيح العقائد ، ١٢ - ١٣ .

السبب الثاني من أسباب الخلاف

الفروق الفردية

الفـــروق الفـــرديـــة

لقد كاد يكون كافياً ، أن يقال : يوجد شخصان ، لكي يخرج المتأمل الناظر في حالهما ، بفكرة مؤداها : أنه يوجد رأيان ، أو توجد وجهتا نظر ، أو هنالك ذوقان ، وبالجملة هناك خلاف – أياً كان نوعه ، ودرجته – بينهما ، فلا يوجد تطابق في كل شيء بين شخصين مختلفين ، سواء في الأشكال ، والصور ، والألوان ، بله الأفهام ، والأطباع ، والاتجاهات ، والاستعدادات ، والقدرات .

فقد أوضحت بعض الدراسات ، وجود بعض الفروق الفردية الواسعة بين الأفراد في الطفولة ، في عتبة الإحساس (Sensory threshold) ، فمن الأطفال من يستجيب بانعكاسات عضلية حتى مع الضربات الخفيفة جداً على الجلد ، بينما لايستجيب بعض الأطفال الآخرين ، إلا إذا كانت الضربات قوية نوعاً ما ، وكذلك توجد فروق في عملية التكيف لدى الصغار والكف عن الاستجابة ، ومن الأشياء المرئية ، الفروق في النشاط وفي القابلية للإثارة ، فبعض الأطفال يظهرون نشاطاً أكبر من غيرهم بتحريك أذرعتهم وأقدامهم ، بينما يبدو بعض الأطفال الآخرين أكثر هدوءًا من أولئك [١] .

وجميع علماء التربية وعلم النفس ، يؤكدون على مبدأ الفروق الفردية وأهميته الكبيرة ، وأهمية مراعاته ، عند التخطيط للعمل التربوي ، فهذه

---

(١) فاروق عبد الفتاح موسى : أسس السلوك الإنساني ، ص٣ .

الفروق حاصلة ولاشك ، وأمر واقع لابد من التعايش معه .

وهذا الاختلاف والتفاوت بين البشر ، آية من آيات عظمة الخالق القدير ، عز وجل ، القائل :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (١) .

فعلى كثرة الخلق وتباينهم ، مع أن الأصل واحد ، ومخارج الحروف واحدة ، ومع ذلك ، لاتجد صوتين متفقين من كل وجه ، ولا لونين متشابهين من كل وجه ، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ، ما يحصل به التمييز ، وهذا دال على كمال قدرته عز وجل ، ونفوذ مشيئته ، ومن عناية الله بعباده ، ورحمته بهم ، أن قدر ذلك الاختلاف ، لئلا يقع التشابه التام ، فيحصل الاضطراب ، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب .(٢)

ويقول عز من قائل :

﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ (٣) .

ويقول أهل التفسير ، عند تفسير هذه الآية : « ومن ذلك ، الناس ، والدواب ، والأنعام ، فيها من اختلاف الألوان ، والأصناف ، والأصوات ،

---

(١) الروم / ٢٢ .

(٢) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٨٢/٤ .

(٣) فاطر / ٢٨ .

والهيئات ، ما هو مرئي بالأبصار ، مشهود للنظار ، والكل من أصل واحد ، ومادة واحدة ، فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى ، التي خصصت ما خصصت منها بلونه ووصفه ، وقدرة الله تعالى ، حيث أوجدها كذلك ، وحكمته، ورحمته ، حيث كان ذلك الاختلاف ، وذلك التفاوت فيه من المصالح ، والمنافع ومعرفة الطرق ، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً ماهو معلوم » (١) .

فالمتأمل إذا نظر إلى حال البشر ، ورأى الاختلاف قد حصل في الماديات ، علم يقيناً ، أن حصوله في مجال المعنويات أكيد ولاريب .

ومما يشهد لهذا المعنى ، قوله تعالى :

﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (٢) .

ففي هذه الآية يشبه - تعالى - الهدى الذي أنزل على رسوله ، ﷺ ، لحياة القلوب والأرواح ، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح ، وشبه ما في الهدى ، من النفع العام الكثير ، الذي يضطر إليه العباد ، بما في المطر ، من النفع العام الضروري ، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها ، بالأودية التي تسيل فيها السيول ، فوادٍ كبير ، يسع ماءً كثيراً ، كقلب كبير ، يسع علماً

---

(١) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٤ / ٢١٦ .

(٢) الرعد / ١٧ .

كثيراً ، ووادٍ صغير ، يأخذ ماءً قليلاً ، كقلب صغير ، يسع علماً قليلاً [١] .

وحول هذه المعاني ، كان حديث الصادق المصدوق ، ﷺ ، في الحديث الذي يرويه عنه ، أبو موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، حيث يقول : قال رسول الله ، ﷺ : « إن مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء فنفع الله به الناس ، فشربوا ورعوا ، وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى ، إنما هي قيعان ، لاتمسك ماء ، ولاتنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه بما بعثني به ، فعَلِمَ وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به [٢] .

وفي شرح هذا الحديث أن النبي ﷺ قسَّم الناس ، بالنسبة إلى الهدى والعلم ، إلى ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل ، وخلفاء الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وهم الذين قاموا بالدين ، علماً وعملاً ودعوة ، فهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي ركزت ، فقبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها ، وكان لها قوة الحفظ ، والفهم في الدين ، والبصر بالتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ،

(١) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٢ / ٤٦٥ .

(٢) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، رقم ٧٩ ، (فتح الباري ١/ ٢١١) ، بنحوه .

ورزقت فيها فهماً خاصاً ، كما قال أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب ، وقد سُئِلَ : هل خصكم رسول الله ، ﷺ ، بشيء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً ، يؤتيه عبداً في كتابه (١) .

الطبقة الثانية : حَفِظَت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس ، وتلقوها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتَّجَروا فيها ، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ، فاستخرجوا غوامضها ، وأسرارها ، وورِدوها كل بحسبه ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ (٢) وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ، ﷺ : « نَضَّر الله امرءًا سمع مقالتي ، فوعاها ، ثم أداها ، كما سمعها ، فرب حامل فقه ، غير فقيه ، ورب حامل فقه ، إلى من هو أفقه منه » (٣) .

وهذا عبد الله بن عباس ، حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، مقدار ماسمع من النبي ﷺ ، لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه : سمعت ورأيت ، وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك في فهمه ، والاستنباط منه ، حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً ، حتى بلغت فتاويه سبعة أسفار كبار ، كما

---

(١) البخاري / الجامع الصحيح ، الديات رقم ٦٩١٥ ،(فتح الباري ، ٢٧٢/١٢) .

(٢) البقرة / ٦٠ .

(٣) الترمذي : الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، ٧ .

قال ابن حزم ، وهو بحسب علم القائل ، وإلا علمه كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن ، بالموضع الذي فاق به الناس ، وقد سمع ، كما سمعوا ، حفظ القرآن ، كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي ، وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ (١)

وأين تقع فتاوى ابن عباس ، وتفسيره واستنباطه من فتاوى أبي هريرة وتفسيره ؟ وأبو هريرة ، أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق ، يؤدي الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درساً ، فكانت همته إلى الحفظ ، وتبليغ ماحفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس ، مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج فصوصها .

الطبقة الثالثة : هم أشقى الخلق ، الذين لم يقبلوا هدى الله ، ولم يرفعوا به رأساً ، فلا حفظ ، ولافهم ، ولارواية ، ولادراية ، ولارعاية(٢).

وتفاوت الأفهام ، حصل بين أفضل الخلق ، صلوات الله وسلامه عليهم ، على الرغم من أفضليتهم على البشر ، وشاهد ذلك في قوله تعالى :

---

(١) الجمعة / ٤ .

(٢) ابن قيم الجوزية : الوابل الصيب من الكلم الطيب ، ١١٥ - ١١٩ بتصرف يسير .

﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ (١) .

يقول الشيخ ابن سعدي ، في تفسير هذه الآية : « أي : واذكر هذين النبيين الكريمين « سليمان » و« داود » مثنياً مبجلاً ، إذ آتاهما الله ، العلم الواسع ، والحكم بين العباد ، بدليل قوله ﴿ **إذ يحكمان في الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم** ﴾ أي : إذ تحاكم إليهما صاحب حرث ، نفشت فيه غنم القوم الأخرى ، أي : رعت ليلاً ، فأكلت ما في أشجاره ، ورعت زرعه ، فقضى فيه دواود عليه السلام ، بأن الغنم ، تكون لصاحب الحرث ، نظراً إلى تفريط أصحابها ، فعاقبهم بهذه العقوبة ، وحكم فيها سليمان ، بحكم موافق للصواب ، بأن أصحاب الغنم ، يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث ، فينتفع بدرِّها ، وصوفها ، ويقومون على بستان صاحب الحرث ، حتى يعود إلى حاله الأولى ، فإذا عاد إلى حاله ، ترادَّا ، ورجع كل منهما بماله ، وكان هذا من كمال فهمه ، وفطنته عليه السلام » (٢) .

---

(١) الأنبياء / ٧٨ - ٧٩ .

(٢) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٣ / ٢٩٢ .

السبب الثالث من أسباب الخلاف
الجهل وضعف المحصلة العلمية

السبب ... من أسباب الخلاف الجهل

الجهلُ نقيض العلمِ ، الداءُ العضالُ ، الذي إذا فتك بجيل لم يتركه إلا أشلاء ممزعة ، وأصبح لاحظ له في خير قط .

والجهل نوعان : جهل بسيط ، وجهل مركب :

قـــال حمـار الحـكيم توما لو أنصفوني لكـنت أركـب

لأننـــي جـــاهـــل بسيط وصـاحبي جـاهــل مـركب[١]

فالجهل البسيط : يجهل صاحبه الأمر ، ويعلم أنه يجهله ، بعكس الجهل المركب الــذي يجهل صاحبه الأمر ويجهل أنه يجهله ويظن أنه يعلمه فـــإن « من جهل شيئاً ، وجهل جهله به ، كان مجهوله من أمرين ، وهذا هو الجهل المركب ، ومن قال : لا أدري ، علم جهله به ، وبقي علمه بذلك الأمر »[٢] .

ويعدد الراغب الأصفهاني في مفرداته ، أن الجهل على ثلاثة أضرب :

١ - خلو النفس من العلم ، وهذا هو الأصل .

٢ - اعتقاد الشيء بخلاف ماهو عليه .

٣ - فعل الشيء بخلاف ماحقه أن يفعل[٣] .

إن الجهل يؤدي بصاحبه إلى الخلاف ، لأنه لايعلم - أصلاً - شيئاً في الموضوع ، فيلقي الكلام على عواهنه فيَضِل ويُضِل ، ولا أبين من الحديث النبوي الكريم ، الذي يرويه عبد اله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال في من أفتى المشجوج ، بوجوب الغسل في

---

(١) ساجقلي زادة : ترتيب العلوم ، ص ٢٠٢ .

(٢) ساجقلي زاده : ترتيب العلوم ، ص ٢٠٣ .

(٣) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، ٢٠٩ .

البرد ، فاغتسل فمات : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء العي السؤال » (١) .

ففي هذا الحديث يتضح أن جهل من أفتى الرجل الذي أصيب بجراحة في رأسه ، قد أداه إلى مخالفة الحق ، لأنه جهل وتكلم بغير علم ، وقد قال عز من قائل عليماً .

﴿ ولاتقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ (٢) .

وفي هذه الآية ، ذكر العلماء « أن الله تعالى ، نهى عن القول بغير علم ، بل الظن الذي هو التوهم والخيال ، كما قال تعالى : **﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾** (٣) ، وفي الحديث « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » وفي سنن أبي داود « بئس مطية الرجل زعموا » » (٤) .

وقد أنكر الله عز وجل ، أشد النكير ، على من جادل بغير علم ولاهدى ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ (٥) .

وهذه الآية فيها « دليل على المنع من الجدال لمن لاعلم له ، والحظر على من لاتحقيق عنده ، فقال عز وجل : **﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم**

---

(١) أبو داود : سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ص ١٢٥ .

(٢) الإسراء / ٣٦ .

(٣) الحجرات / ١٢ .

(٤) إسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٧٢/٥ .

(٥) آل عمران / ٦٦ .

تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن ، فقال تعالى ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه أتاه رجل أنكر ولده ، فقال : يارسول الله ، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هل لك من أبل ؟ قال : نعم . قال : ما ألوانها ؟ قال : حمرٌ . قال : هل منها من أورق ؟ قال : نعم ، قال : فمن أين ذلك ؟ قال : لعل عرقاً نزعه ، فقال صلى الله عليه وسلم : وهذا الغلام لعل عرقاً نزعه .

وهذا حقيقة الجدال ، ونهاية في تبين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) .

فجهل الإنسان قد يؤديه لبغض الكثير من العلوم والأمور النافعة ، لالشيء إلا لأنه يجهلها ، ولو علمها لما أبغضها :

أتانا أن سهلاً ذم – جهلاً – علوماً ليس يدريهن سهل
علوماً لو دراها ما قلاها ولكن الرضا بالجهل سهل (٢)

واشتهر بين الناس ، أن الإنسان عدو ماجهل ، كما قال الأول :

فلا تلمهم على إنكار مانكروا فإنما خلقوا أعداء ماجهلوا (٣) .

والجهل يسبب الخلاف بكونه إما « جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه ، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر ، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق » (٤) .

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ٤ / ١٠٨ .

(٢) الشوكاني : أدب الطلب ومنتهى الأرب ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٣٠ .

(٤) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ١ / ١٣٢ .

إن الجهل بحد ذاته في أمر معين من الأمور ليس عيباً ، بل ورد الجهل في الكتاب العزيز في موقع غير موقع الذم ، فقد قال تعالى :

﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ (١) .

ويذكر الراغب الأصفهاني في المفردات : « أي : من لايعرف حالهم ، وليس يعني المتخصص بالجهل المذموم » (٢) .

فيتضح أن الإشكالية تحصل عندما لاتكون المعرفة لها أهميتها القيمية في منظومة القيم في المجتمع ، وبهذا يصبح المجتمع بيئة غير صالحة للنمو المعرفي ، بل يساعد على تنمية ضد ذلك ، وذلك لـ « أن أوضاع المجتمعات هي نتاج منظومة القيم ، فالناس ينشطون إلى الأشياء ، بمقدار مقامها في سلم القيم السائدة في المجتمع الذي ينتمون إليه ويعيشون فيه ويتشربون قيمه ويمتصون الاهتمامات السائدة فيه ، فالأفراد لايهتمون إلا لما يرون أن المجتمع يهتم به ، ويهملون مايرون المجتمع يهمله ، فلا يأبهون لما ليس من اهتمامات المجتمع ، بل لايفطنون لأي شيء مهما علت قيمته الذاتية إذا لم يكن محل اهتمام المجتمع وموضع تقديره ومحط اعتباره »(٣) فإذا كان المجتمع بشكل عام مهتماً بالمعرفة ، سنجده – ولاريب – يقدر كل علم مفيد وأهله ، وإذا كان المجتمع مجتمع مظاهر ، سنجد التقدير لأهل الشهادات العلمية ، دون أي اعتبار لما يحمله أهل هذه الشهادات من مضمون علمي وإن كان فارغاً .

وعدم الاهتمام بالعلم يؤدي إلى « توهم الندية بين الجميع » (٤) فلا احترام

---

(١) البقرة / ٢٧٣ .

(٢) الراغب الأصبهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، ٢٠٦ .

(٣) إبراهيم البليهي :جهل الجهل يغتال العقل ، جريدة الرياض ،١٤١٥/٨/٤هـ ،عدد٩٦٩١،ص٩ .

(٤) نفس المرجع .

ولا تقدير لعالم في علمه ، وبهذا « ضاعت الحقيقة ، واختلط العلم بالجهل ، فالذي لديه شيء من العلم ، لايستطيع أن يعطي مالديه من علم ، لأن المحتاجين لهذا العلم يجهلون هذه الحاجة ، فإذا هو حاول إيصال ما انتهى إليه من معرفة نافعة – أمضى عمره في اكتسابها – وجد أن الجميع غير مستعدين للإصغاء ، فكل فرد يرى أنه مساوٍ في العلم لكل فرد آخر ، مهما بلغ التفاوت ، إلا في حالات نادرة جداً ، إن الناس في عرفنا ليسوا على مستويات متدرجة من العلم ، فالجاهلون لايعترفون لذوي الدرجات الأعلى بهذا التدرج أو هذا السبق ولكنهم يرون أنهم مماثلون لهم تماماً ، فإذا تكلم من لديه علم في شيء يعلمه ، عارضه من لم يسبق أن خطرت القضية على باله وكأنه حوار بين أنداد » (١) .

فلن يجد الناظر في أي مجال علمي ، في أي بلد كان ، أن المجالات العلمية في تقدم ، إلا إذا كانت منزلة العلم – أياً كان – في هذا البلد متقدمة على غيرها ، فنجد المجتمعات المتقدمة في النواحي التقنية ، نجدها تعطي علوم المهارات العملية درجة عاليه في سلم الاهتمامات الخاصة بها ، فلا يوجد ناشيء يأنف من أن يكتسب مهارة يدوية حرفية ، ولاتوجد عائلة تستنكف من كون أحد أبنائها مختصاً بمهنة كهذه تتطلب العلم المهاري اليدوي ، أكثر من تطلبها للعلم النظري ، وينطبق العكس تماماً في المجتمعات الفاقدة لهذا الأمر .

ولايعني عدم الوعي بأهمية المعرفة في مجتمع ما ، أو عند شخص ما ، الجهل والقصور المعرفي التام ، بل قد يكون ذا علم جم ، ولكنه لايحسن

---

(١) إبراهيم البليهي : أولوية تأسيس علم الجهل ، جريدة الرياض ،١٩/٦/١٤١٤هـ ، عدد رقم ٩٢٩٢ ، ص ٩ .

التعرف إلى ما يعلم ، وما يحسن أن يكون عليه سلوكه وتفكيره بهذا العلم ، فيكون كالدابة الحاملة للأسفار ، لاتعرف العلم الجيد فتتبعه ، ولا الرديئ فتتجنبه :

زوامل للأشعار لاعلم عندهم   بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك مايدري البعير إذا غدا   بأوساقه أوراح ما في الغرائر(١)

فمثل هذا : حاطب ليل ، يخبط في الأمور خبط عشواء ، فيثير خلافاً وهو يظن أنه صنع إتفاقاً .

ولو سأل سائل ، وقال : هل هناك ماهو شر من الجهل ؟ لكان الجواب عليه : نعم شر من الجهل : جهل الجهل .

وجهل الجهل : هو الجهل المركب ، وهو آفة الآفات ، ومعضلة المعضلات والذي من سماته التعالم وإنعدام احترام التخصص العلمي .

إن الجاهل الذي يدري أنه يجهل ، أمره سهل – وخصوصاً بالمقارنة – وعلاجه يسير ، فعلمه بجهله هو الذي يدفعه لأن يحاول تغيير واقعه المر ، فيسير باتجاه العلم ، متسلحاً ببياض صفحة عقله من ذلك الأمر ليحبرها بما صح من هذا العلم ، ولايسمى هذا جاهلاً إلا في حدود الأمر الذي يجهله ، فقد يكون عالماً في مجاله مبرزاً فيه .

أما الداهية العظيمة ، والمصيبة الجسيمة ، فهو الجاهل الذي لايدري أنه يجهل :

أرى العباس ينقص كل يوم   ويزعم أنه –جهلاً– يزيد (٢)

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٣١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

فـهذا الصنف من الناس ، يكون جـهلهم بجـهلهم بمثابة « عـائق فظيع من عوائق العلم ، وحاجز غليظ من حواجز المعرفة ، ومحبط شنيع من مـحبطات التنميـة لأن الذي يجـهل جـهله ، لايقف مـوقفـاً حـيادياً من الإنجاز فـي العلم والعمل ، وإنما يقف ساخراً من الذين يعلمون ، كما يعادي كل إنجاز لايتفق مع جهالته ، وفي ذلك يقول الفيلسوف الصيني « لاوتسي » في كتاب « الطريق والفضيلة » : (عندما يسمع معلم من درجة عالية بالطريق ، فهو يحاول أن يسير على هداه ، وعندما يسمع معلم من درجة متوسطة بالطريق ، فهو يسير علـيه مرة ، ويتخـلى عنه مـرة .. أما عندما يسـمع مـعلم من درجـة دنيـئة بالطريق ، فإنه يضحك عليه بغير صوت مسموع) فإذا كان هذا شأن من بلغ درجة المعلم ، فكيف يطمع العارفون بالوصول إلى أي مستوى من مستويات التفاهم مع الجاهلين » (١) .

إن من جهل شيئاً من العلم ، فسلك طريق تعلمه ، لحقيق ألا يُسَمَّى جاهلاً ، بـل هو طالب علم ، وأمـا الجـاهل حـقـاً فـهـو من جـهل وأنف من التـعلم لظنه بعلمه ، ويقول الإمام الشافعي ، رحمه الله : « العالم يسأل عما يعلم وعما لايعلم ، فيثبت مايعلم ، ويتعلم ما لايعلم ، والجاهل يغضب من التعلم ، ويأنف من التعليم » (٢) .

فعندما يحصل خلاف بين اثنين من البشر ، أحدهما عالم بموضوع الخلاف والآخر جاهل به ، فإن كـان الجاهل ذا جـهل بسيط ، فـسيكفي أن يطرح من لديه علم بموضوع الخلاف حجته لينهي الخلاف مالم يصاحب الجهل ببغي .

---

(١) إبراهيم البليهي :جهل الجهل يغتال العقل ، جريدة الرياض، ١٤١٥/٨/٤هـ ، عدد ٩٦٩١، ص٩

(٢) الذهبي : سير اعلام النبلاء ، ١٠ / ٤١ .

وأما إذا كان المخالف من أهل الجهل المركب ، فلن ينتهي النقاش ، ولن يتمكن العالم من سد رقعة الخلاف .

وإن عناء أن تُفَهِّم جاهلاً فيحسب -جهلاً- أنه منك أفهم [(١)]

وذلك أن من يجهل جهله ، لايعطي مرجعية علمية إلاَّ لعقله الجاهل وفكره الخطأ ، فجهالته – في هذه الحالة – هي الخصم والحكم ، فأنى يكون لمن هذا عقله توافق مع علم أو مع عالم .

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٣٠ .

السبب الرابع من أسباب الخلاف
خطأ الموقف من الخلاف والمخالف

وهذا السبب من أبرز الأسباب المؤدية لنتائج الخلاف الوخيمة ، ومنه الخلل في فـهم الإسـلام ومقـاصـده العـامـة ، ومنه الخطأ في فـهم نـوع الخـلاف أو الاعتقاد بأن الحال يمكن أن يكون بدون حدوث خلاف .

ومن أظهر من مثل الخلل في فهم الإسلام ومقاصده فـهماً صحيحاً شاملاً ، الخوارج ، الذين حملوا النصوص الشرعية على غير محاملها ومراميها ، ثم استدلوا بها على آرائهم المنحرفة عن جادة الصواب .

وهؤلاء الخـوارج ، هم الذين جاء فـيهم الحديث الشـريف ، الذي يرويه أبو سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « بينما نحن عند رسول الله ، صلي الله عليه وسلم - وهو يقسم قسماً - إذ أتاه ذو الخـويصرة ، وهو رجل من بني تميم ، فقـال : يارسـول الله اعدل ، فـقـال : ويلك ، ومـن يعدل إذا لم أعـدل ، قد خبت وخـسرت إن لم أكن أعدل ، فـقـال عمر : يارسول الله ، ائذن لي فيه فاضرب عنقه ، فقال : دعه ، فإن له أصحاباً يحـقـر أحدكم صلاته مـع صلاتهم وصيـامـه مع صيـامـهم ، يقـرؤون القـرآن لايجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلايوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نضيه - وهو قدحه - فلايوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى قذذه فلايوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم .. الحديث » [1] فالرسول ، صلى الله عليه وسلم « شبه مروقهم من الدين بالسهم الذي يصيب الصيد فيدخل فيه ويخرج منه ، ومن شدة سرعة خروجه لقوة الرامي ، لايعلق من جسد الصيد فيه شيء» [2]

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المناقب رقم ٣٦١٠ ، (فتح الباري ٦/٧١٤- ٧١٥) .

(٢) نفس المرجع : ٦ / ٧١٥ .

فهؤلاء الخوارج لم يفهموا حقيقة النصوص الشرعية ولم يحملوها على محاملها الصحيحة ، بل « كان أول كلمة خرجوا بها ، قولهم : لاحكم إلا الله ، وانتزعوها من القرآن وحملوها على غير محملها » (١)

وتحمل السير الكثير من أفعال الخوارج ، والتي تدل على سفاهة أحلامهم ، وخلل فهمهم للدين ، فضلوا وأضلوا ، وأخرجوا الكثير من أئمة الدين من الدين ، وقتلوا كثيراً من المسلمين وفرقوا كلمتهم وأحدثوا الفتن والخلافات العظيمة .

الموقف الخطأ من المخالف :

إن ضيق الصدر عن تقبل الرأي الآخر ، لهو أمر يؤدي – ولاشك – إلى اتخاذ موقف المعاداة الشديدة للمخالف ، و « مطالبة المخالف بالموافقة جار مع الأزمان ، لايختص بزمان دون زمان ، فمن وافق فهو عند المطالب – من يطلب أن يوافقه مخالفه – المصيبُ علي أي حالٍ كان ، ومن خالف فهو المخطىء المصاب ، ومن وافق فهو المحمود السعيد ، ومن خالف فهو المذموم المطرود ، ومن وافق فقد سلك سبيل الهداية ، ومن خالف فقد تاه في طرق الضلالة والغواية » (٢) .

وهذا – والله المستعان – حال أكثر الناس ، فجل همهم أن يكثر من عدد موافقيه وإن كان رأيه خطأً بيناً ، ويرمون مخالفيهم بأشنع التهم والأباطيل ، وإن كان مخالفوهم هم الذين على الصواب .

وليست الشكوى في هذا الأمر جديدة ، بل طالما اشتكى أهل العلم حالهم مع معاصريهم وأهل زمانهم ممن خالفوهم – وإن كان خلافهم في أشياء

---

(١) نفس المرجع : ٧١٦/٦ .

(٢) الشاطبي : الاعتصام ، ٣١/١ .

يسيرة – فهذا العلامة ابن بطة العكبري يقول في حاله مع أهل زمانه : « عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين ، والعارفين والمنكرين ، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن ، أكثر من لقيت بها ، موافقاً أو مخالفاً ، دعاني إلى متابعته على ما يقوله وتصديق قوله والشهادة له ، فإن كنت صدَّقت فيما يقول ، وأجزت له ذلك كما يفعله أهل هذا الزمان ، سمَّاني موافقاً ، وإن وقفت في حرف من قوله ، أو في شيء من فعله ، سمَّاني مخالفاً ، وإن ذكرت في واحده منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك واردٌ ، سمَّاني خارجياً ، وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد ، سمَّاني مشبهاً ، وإن كان في الرؤية سمَّاني سالمياً ، وإن كان في الإيمان سمَّاني مرجئاً ، وإن كان في الأعمال سمَّاني قدرياً ، وإن كان في المعرفة سمَّاني كرَّامياً ، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سمَّاني ناصبياً ، وإن كان في فضائل أهل البيت سمَّاني رافضياً ، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث ، فلم أجب فيهما إلا بهما ، سمَّاني ظاهرياً ، وإن أجبت بغيرهما سمَّاني باطنياً ، وإن أجبت بتأويل سمَّاني أشعرياً ، وإن جحدتهما سمَّاني معتزلياً ، وإن كان في السنن مثل القراءة سمَّاني شفعوياً ، وإن كان في القنوت سمَّاني حنفياً ، وإن كان في القرآن سمَّاني حنبلياً ، وإن ذكرت رجحان ماذهب كل واحد إليه من الأخبار – إذا ليس في الحكم والحديث محاباة – قالوا : طعن في تزكيتهم .

ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون علي من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشتهون من هذه الأسامي ، ومهما وافقت بعضهم ، عاداني غيره ، وإن داهنت جماعتهم ، أسخطت الله تبارك وتعالى ، ولن يغنوا عني من الله شيئاً ، وإني مستمسك بالكتاب والسنة ، واستغفر الله الذي لا إله إلا هو ، وهو الغفور الرحيم » (١) .

---

(١) الشاطبي : الاعتصام ، ١/٣٧ – ٣٩ .

السبب الخامس من أسباب الخلاف

ترك أصول وآداب الحوار والمناظرة

ترك اتباع أصول وآداب الحوار والمناظرة

إن أغلب الحوارات والمناظرات التي تجري بين الناس ، إنما هي حديث بين مختلفين - أياً كان نوع اختلافهما - فالمعلم - مثلاً - عندما يحاور طالبه في أمر ما ، فهما حقيقة مختلفين ، لأن أحدهما يعلم والآخر لايعلم ، فيكون إيصال المعلومة المراد إيصالها من قبل المعلم إلى المتعلم عن طريق الحوار قاطع للخلاف وجاعلهما متفقين ، هذا في أحسن حالات الخلاف ، إما في غير ذلك من الحالات فقد يكون الحوار - وخاصة إذا تحول إلى جدل ومراء - بداية للنزاع والفرقة والشقاق ، بل والحروب .

وفي لسان العرب :

« والمحاورة : المجاوبة ، والتحاور : التجاوب ، وتقول كلمته فما أحار إلي جواباً ، .... ، وهم يتحاورون ، أي : يتراجعون الكلام ، والمحاورة : مراجعة المنطق ، والكلام في المخاطبة » (١) .

فالحوار يعد « نوع من الحديث بين شخصين ، أو فريقين ، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة ، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر ، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب » (٢) ، وهذا في صورته المثالية ، وليس في صوره الواقعية ، التي قد يأخذ الشطط فيها بالإنسان إلى نبذ الحق ،

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، ٢١٧/٤ - ٢٢٢ .

(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامي : أصول الحوار ، ص ١١ .

والتمسك بالباطل ، وتحويل الحوار الهادئ ، إلى جدال مذموم .

ولما كان لكل أمر من الأمور أصول يقوم عليها ، بها تتقوى أركانه ، ويشتد بنيانه ، فقد قام الحوار على أصول لابد منها ليكون حواراً بناءًا مفيداً للطرفين المتحاورين .

ويشترك الحوار مع الخلاف في أكثر الأصول التي تقوم عليها آدابه ، خاصة إذا عُلِمَ أن أكثر الحوارات التي تجري بين الناس ، هي – في حقيقتها– تجري لإنهاء خلاف مابينهم .

فلايمكن أن يتصور أن يقوم شخص ذو هوى وتحيز محاوراً في موضوع ما ، فيكون الحوار جاداً وموضوعياً ، وهذا حال المخذولين كما قال تعالى عنهم :

﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (١) .

فهؤلاء المخذولون ، الضالون ، سدوا على أنفسهم الأبواب الموصلة إلى الحق ، فذكروا أن قلوبهم في أكنة وأغشية تغشيهم عن الحق ، وأظهروا الإعراض عن الحق ابتداءً ، وأبغضوه ورضوا بما هم عليه اتباعاً لأهوائهم (٢) .

ولايصح لمن يجهل مقامات الناس – علماً وجهلاً ، وهيبة وغيرها – أن

---

(١) فصلت / ٥ .

(٢) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحن ، ٣٨٦/٤ .

ينزل لساحة الحوار ، فيتحاور مع العالم حوار الجهلة وصغار المتعلمين فيكون مذموماً ، أو يتحاور مع الصغار فيما لاينبغي له أن يذكر أمامهم فيوقعهم في الحرج وما لاتبلغه عقولهم التي لم يتأت لها أن تصل إليها ، وهناك ممن يكون على شيء من الحق ولكنه ذو بضاعة مزجاة من العلم ، فيقوم بمحاورة أساطين الضلال فيضل لعدم وجود المقدرة العقلية التي تمنعهم من زحزحته إلى مهاوي الباطل بل يجب على من كان هذا حاله أن يمتنع عن حوار ومناظرة عظماء أهل الباطل ، فقد كان العلماء « ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة ، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل ، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار ، فإن ذلك يضره ، ويضر المسلمين بلا منفعة ، وقد ينهى عنها إذا كان المناظر معانداً ، يظهر له الحق ، فلا يقبله ، وهو السوفسطائي(١)، ... ، والمقصود أنهم نهوا عن المناظرة من لايقوم بواجبها ، أو مع من لايكون في مناظرته مصلحة راجحة ، أو فيها مفسدة راجحة ، هذه أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال» (٢) .

وجماع هذا الأمر ، أن من كان حاله كذلك ، خالف المقولة المشهورة العظيمة : رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه .

ولاينقضي العجب أن ترى جاهلاً يقوم بمحاورة العلماء ، فيرد رأيهم

---

(١) السوفسطائية : جماعة فلسفية : أنكروا إمكانية الوصول إلى حقائق موضوعية فالحقيقة عندهم نسبية والمهم هو إقناع الخصم لابلوغ الحقيقة ، (الموسوعة العربية ، بإشراف محمد غربال ص ١٠٣٤) .

(٢) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ، ٧ / ١٧٣ - ١٧٤ .

السديد ، لجهله العظيم ، وظن أن له علماً ، وليس له علم :

وقـــال الطانزون لـــه : فقيه   فصعـد حـاجبيـه بـه وتاها

وأطـــرق في المحافل أي بأني   ولايـــدري لعمرك ما طحاها [١]

فــيرد على محـاوره بـ : هذا عندنا ، ويظن أنه أفـحـمـه بقـوله : إن هذا قولنا ، فحال هذا الجاهل المسكين أن يقال له البيت الشهير :

يقولون هذا عندنا غير جائز   ومن أنتم حتى يكون لكم عند [٢]

وقد ذم الله في كتابه العزيز من جادل بغير علم وفيما ليس له به علم ، وأنزل في ذلك قرآنا يتلى بقوله ، عز من قائل :

﴿ هَا أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ [٣] .

وفي هذه الآية الكريمة ، دليل صريح « على أنه لايحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لاعلم له به » [٤] .

ومن لم يفـهم الموضوع المتحاور أو المختلف فيه ، لاشك أنه لن يقدر على اتبـا ع الأصـول الواجب اتبـاعـهـا في حـواره ، كـيف لا ؟ وهو لما يفـهـم مـاهو الشيء الذي ينبغي الوصول إليه في الحوار .

---

(١) بكر أبو زيد : التعالم وأثره على الفكر والكتاب ، ص ٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(٣) آل عمران / ٦٦ .

(٤) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ١ / ٢١٥ .

فقد يكون الموضوع - موضع الحوار والخلاف - مما لايمكن الوصول إليه بنتيجة واحدة لكلا الطرفين ، بل كل طرف متبع الحق مصيب فيه ، كما سلف في خلاف التنوع .

وآفة آفات الحوار ، أن يتحول الحوار إلى جدال عقيم ، ولجج بالباطل وبعد عن الحق والآداب الفاضلة .

والجدال منه ماهو محمود ، ومنه ماهو مذموم .

فمن الجدال المحمود ، ماجاء في الكتاب العزيز في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[١] .

فالمجادلة بالتي هي أحسن ، تكون بسلوك « الطرق التي تكون أدعى لاستجابته - أي الطرف الآخر - عقلاً ونقلاً ، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها ، فإنه أقرب إلى حصول المقصود ، وأن لاتؤدي المجادلة إلى خصام ومشاتمة تذهب بمقصودها ولاتحصل الفائدة منها ، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق ، لا المغالبة ونحوها »[٢] .

ولكن الجدال بالباطل ، ورد الحق الواضح ، هو المذموم ، قال تعالى :

---

(١) النحل / ١٢٥ .

(٢) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحيم ، ٣ / ٩٣ .

﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير** ﴾ [١].

فهؤلاء كانوا يجادلون عن الباطل ، ليدحضوا به الحق ، بغير علم ، وعلى غير بصيرة ، ولاعلم عقلي صريح أو علم نقلي صحيح[٢] .

ولم يكن الجدال المذموم في قوم ، إلا قضى على كل القيم النبيلة في النواحي المعرفية ، فيكون هم كل امرئ من القوم ، أن ينقض قول صاحبه جدلاً ، لاحواراً نبيلاً ، فيحجم من كان ذا فضل وسمعة عن طرح رأيه كي لايجبهه مجادل ممار لايقيم للعلم والحق وزناً ، ورحم الله من قال : « إذا أراد الله بقوم شراً ، ألقى بينهم الجدل وخزن العلم » [٣] .

وقد حذر العلماء من الجدال المذموم ، لأنه لايورث إلا السوء ، ومن أقوال هؤلاء العلماء في ذم هذا النوع من الجدال ، قول وهب بن منبه ، رحمه الله : « دع المراء والجدل فإنه لن يعجز أحد رجلين ، رجل هو أعلم منك ، فكيف تعادي وتجادل من هو أعلم منك ؟ ! ورجل أنت أعلم منه ، فكيف تعادي وتجادل من أنت أعلم منه ، ولايطيعك ؟ ! » [٤] .

ويرى الخطيب البغدادي ، أن الجدال المذموم ينقسم إلى قسمين :

الأول : الجدال بغير حجة .

---

(١) لقمان / ٢٠ .

(٢) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٤ / ١١١ .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه ، ١ / ٢٣١ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٤ / ٤٥٩ .

الثاني : الجدال بالشغب ، والتموية ، نصرة للباطل ، بعد ظهور الحق وبيانه [١] .

وهنالك من حدد أنواع الجدال المذموم ، بثلاثة أنواع :

١ - المجادلة بالباطل لدحض الحق :

وقد ذمها الله تعالى بقوله :

﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ [٢] .

٢ - المجادلة في الحق بعدما تبين :

وقد ذمها الله تعالى بقوله :

﴿ يجادلونك في الحق بعدما تبين ﴾ [٣] .

٣ - المجادلة في ما لا يعلم المحاج :

وقد ذمها الله تعالى بقوله :

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ [٤]،[٥] .

وهذه الأنواع المذمومة ، هي التي تتنزل عليها النصوص والأقوال الذامة للجدل و « على هذه الأنواع الآثمة ، من أنواع المجادلة بالباطل ، وماجرى

---

(١) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه ، ١ / ٢٣٣ .

(٢) غافر / ٥

(٣) الأنفال / ٦ .

(٤) آل عمران / ٦٦ .

(٥) بكر أبو زيد : الرد على المخالف ، ٤٩ - ٥٠.

مجراها ، كالمجادلة بمتشابه القرآن ، والمراء في القرآن ، ومجادلات المنافقين، والجدل في بدعة ، والجدل لتحقيق العناد .. وهكذا كل مجادلة تنصر الباطل ، أو تفضي إلى نصرته ، وتهضم الحق ، وتحقق العناد : تتنزل النصوص من الكتاب والسنة ، التي تذم الجدل والمجادلة : « الرد والردود » – كقوله تعالى :

﴿ **ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص** ﴾ (١) .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة مرفوعاً : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه ، إلا أوتوا الجدل ، ثم قرأ :

﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ (٢) » (٢) .

---

(١) الشورى / ٣٥ .

(٢) الزخرف / ٥٨ .

(٣) بكر أبو زيد : الرد على المخالف ، ص ٥٠ .

الفصل الرابع

أصول أدب الخلاف في التربية الإسلامية

ويتضمن :

- الموضوعية والتجرد .
- مراعاة الفروق بين الناس .
- العلم واحترام التخصص العلمي .
- الفهم الصحيح لنوع الخلاف .
- اتباع أصول وآداب الحوار والمناظرة .

الأصل الأول من أصول أدب الخلاف
في التربية الإسلامية
الموضوعية والتجرد

عـرف بـعض البـاحـثين الموضـوعـيـة بأنـهـا : دراسـة الظـواهر والمشكلات الاجتماعية كأنها أشياء خارجة ومستقلة عن الباحث ، لأنها تمثل أحد القواعد المركزة للروح العلمية التي تتضمن استقلالاً فكرياً ولاتعترف إلا بسلطة العقل وسلطة التجربة والواقع ، وهي بذلك تمثل منبع المعرفة العلمية (١) .

وبهذا التعريف ، يمكن القول : إن الموضوعية – في هذا البحث – تعني ترك حظوط النفس وهواها ، والإبتعاد عن التحيزات والأحكام المسبقة بدون برهان ، والتجرد لله في طلب الحق والوصول إليه .

ومما يندرج تحت هذا الأصل العظيم ، من أصول أدب الخلاف في التربية الإسلامية ، عدة أمور ، منها :

- أهمية الإخلاص في طلب الحق .
- قبول الحق ممن جاء به .
- تحرير محل الخلاف .
- انصاف الخصم فيما يورده .

وستبحث الأمور المندرجة تحت هذا المبحث ، عن طريق عرض أدلتها من مصادر التربية الإسلامية ، والإستعانة بالتفاسير المعتمدة ، وشروح الأحاديث النبوية ، وكتب السيرة والفكر والأدب .

---

(١) حمدان الصوفي : الموضوعية في العلوم التربوية ، ص ١٧ .

أولاً : الإخلاص وأهميته في طلب الحق :

إن الإخلاص لله في طلب الحق ، أيًا كان سبيله ، لهو من أهم الأمور المتعلقة بمبحث الموضوعية ، بله كل حياة المسلم ، من دقيق أموره وجليلها، ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ **قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾ (١) .

ويقول تعالى :

﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ (٢) .

فالآية الأولى ركزت وأكدت ، على أهمية الإخلاص في كل أمر من أمور المسلم في حياته ، والآية الثانية ، فيها تأكيد الإخلاص في هذا الموضوع بصفة خاصة .

ويذكر ابن سعدي ، في تفسيره لهذه الآية :« أي (قل) يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدين لرد الحق ، وتكذيبه ، والقدح بمن جاء به : ﴿**إنما أعظكم بواحدة** ﴾ أي : بخصلة واحدة ، أشير بها عليكم ، وأنصح لكم في سلوكها وهي طريق نصف ، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي ، ولا إلى ترك قولكم ، من دون موجب لذلك ، وهي : ﴿ **أن تقوموا لله مثنى وفرادى** ﴾ أي : تنهضوا بهمة ، ونشاط ، وقصد لاتباع الصواب ، وإخلاص لله ، مجتمعين ،

---

(١) الزمر / ١١ .

(٢) سبأ / ٤٦ .

ومتباحثين في ذلك ، ومتناظرين ، وفرادى ، كل واحد يخاطب نفسه بذلك . فإذا قمتم لله ، مثنى وفــرادى ، استعملتم فكركم ، وأجلتموه ، وتدبرتم أحوال رسولكم : هل هو مجنون ؟ فيه صفات المجانين من كلامه ، وهيئته ، وصفته ؟ أم هو نبي صادق ، منذر لكم مايضركم ، مما أمامكم من العذاب الشديد ؟ فلو قبلوا هذه الموعظة ، واستعملوها ، لتبين لهم أكثر من غيرهم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون ، لأن هيئته ليست كهيئة المجانين ، في خلقهم ، واختلاجهم ، ونظرهم . بل هيئته أحسن الهيئات ، وحركاته أجل الحركات ، وهو أكمل الخلق ، أدباً ، وسكينة ، وتواضعاً ، ووقاراً ، لايكون إلا لأرزن الرجال عقلاً .

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ، ولفظه المليح ، وكلماته التي تملأ القلوب ، أمناً وإيماناً ، وتزكي النفوس وتطهر القلوب ، وتبعث على مكارم الاخلاق ، وتحث على محاسن الشيم ، وتزجر عن مساوئ الأخلاق ورذائلها . إذا تكلم رمقته العيون ، هيبة وإجلالاً وتعظيماً ، فهل هذا يشبه هذيان المجانين ، وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم ؟! ، فكل من تدبر أحواله ، وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا ؟ سواء تفكر وحده ، أم معه غيره ، جزم بأنه رسول الله حقاً ، ونبيه صدقًا ، خصوصاً المخاطبين ، وهو صاحبهم ، يعرفون أول أمره وآخره » (١) .

وبهذا يتضح أن المرء إذا خاصم أو جادل ، أو خالف ، وجب عليه مراجعة قصده ، وأن يخلص لله في نيته ، فمدار العمل في الإسلام ، على النية ، ففي

---

(١) عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٤ / ١٩٨ - ١٩٩ .

الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال :سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ماهاجر إليه » (١) .

فمن خالف وكان رائده الحق ، في مخالفته فهو واصله لامحالة إن أحسن الاتباع في أغلب الأحوال ، ومن كان تبعاً لهواه ، فهو يهوي إلى سدة الباطل ، إلا أن يتداركه الله برحمة منه ، فيرجع عن غيه .

ثانياً : قبول الحق ممن جاء به :

إن من دار مع الحق حيث يدور ، لايبالي من جاء بالحق ، بل يقبله من أي شخص قاله ، ولايستكبر عنه ، فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حذر من الكبر أيما تحذير ، فمن كان في قلبه كبر ، كان على خطر عظيم ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : «لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، قيل : إن الرجل ، يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل ، يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢) ، وذكر في النهاية في غريب الحديث والأثر ، أن معنى بطر هو : « أن يجعل ماجعله الله حقاً من توحيده ، وعبادته باطلاً ، وقيل : هو أن يتجبر عن

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كيف بدأ الوحي رقم ١ بمعناه .

(٢) أبو داود : سنن أبي داود، كتاب اللباس ، ٢٦ .

الحق ، فلا يراه ، وقيل هو أن يتكبر عن الحق ، فلا يقبله [1] ، ومعنى غمط هو : الاستهانه والاستحقار » [2] .

فهذا الحديث ، يبين مدى خطورة بطر الحق والاستكبار عنه ، وغمط الناس واستحقارهم فيكون من خالف هذه المخالفة الخطيرة ، عرضة للحرمان من الجنة والعياذ بالله ، فوجب على المسلم ، عند حدوث الخلاف ، سعة الصدر ، والإنصاف ، وقبول الحق ممن جاء به ، مهما كان .

ومن عظيم مايستشهد به في طلب الحق وقبوله ممن جاء به ، قوله تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين قل لاتسئلون عما أجرمنا ولانسئل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم** ﴾ [3] .

ويقول أهل التفسير في تفسير هذه الآية : « أي إحدى الطائفتين ، منا ومنكم ، على الهدى ، مستعلية عليه ، أو في ضلال بين ، منغمرة فيه ، وهذا الكلام ، يقوله من تبين له الحق ، واتضح له الصواب ، وجزم بالحق الذي هو عليه ، .... ، وكل منا ومنكم ، له عمله ، أنتم لاتسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا ، ونحن لا نسأل عن أعمالكم ، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحق وسلوك طريق الإنصاف ، ودعوا ما كنا نعمل ، ولايكون مانعاً لكم من قبول الحق » [4] .

---

(١) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/١٣٥ .

(٢) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٣/٣٨٧ .

(٣) سبأ / ٢٦ .

(٤) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٤/٢٤ – ٢٥ .

وفي سيرة النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم : الشواهد الكثيرة الكثيرة على ذلك ، فالحق يقبل ، لالشيء إلا لأنه حق ، بغض النظر عن من جاء به ، ولا أدل من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إني محتاج ، وعلي عيال ، ولي حاجة شديدة . قال : فخليت عنه . فأصبحت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال : قلت : يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته فخليت سبيله . قال : أما إنه كذبك ، وسيعود . فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه سيعود ، فرصدته ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : دعني فإني محتاج ، وعلي عيال ، لا أعود فرحمته فخليت سبيله . فأصبحت ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ؟ قلت : يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما إنه كذبك ، وسيعود فرصدته الثالثة ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات ، إنك تزعم لاتعود ثم تعود . قال : دعني ، أعلمك كلمات ينفعك الله بها . قلت ماهن ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ (١) حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولايقربنك

---

(١) البقرة / ٢٥٥ .

شيطان حتى تصبح . فخليت سبيله . فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت : يارسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله . قال : ماهي ؟ قلت : قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ولايقربك شيطان حتى تصبح – وكانوا أحرص شيء على الخير – فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما إنه قد صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا . قال : ذاك شيطان » (١) ، ويذكر الإمام ابن حجر العسقلاني ، من الفوائد في هذا الحديث : « أن الشيطان قد يعلم ماينتفع به المؤمن ، وأن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلاينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها ، ..... ، وبأن الكذاب قد يصدق » (٢) .

وجاء في الحديث أنه : « أتى حبر من الأحبار ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامحمد نعم القوم أنتم ، لولا أنكم تشركون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ، وماذاك قال : تقولون إذا حلفتم : والكعبة ، فأمهل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، ثم قال : إنه قد قال فمن حلف فليحلف بـرب الكعبة ، قال : يامحمد ، نعـم القوم أنتم ، لولا أنكم تجعلون لله نداً ، قال : سبحان الله ، وماذاك ؟ قال : تقولون : ما شاء الله وشئت، فأمهل

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، الوكالة رقم ٢٣١١ ، (فتح الباري ٤/٥٦٨ – ٥٦٩) .
(٢) المرجع السابق ، ٤ / ٥٧١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا ، ثم قال : إنه قد قال ، **فمن قال ماشاءالله ، فليفصل بينهما ثم شئت** » (١) .

ففي الأمثلة السابقة ، لم يرد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الحق ، الذي جاء به الشيطان ، أو جاء به اليهودي ، بل قبله صلى الله عليه وسلم ، وأرشد الأمة للعمل بموجبه ، فليس في حياة المسلم حق يرفض ، لمجرد أنه جاء من شخص معين ، أو فكرة تصادر وتطارد لأنها صادرة من آخر ، فالخصومات الشخصية وغيرها ، أو الأفكار والأحكام المسبقة بدون برهان ، ليس لها مكان في المنهج الحق ، الذي يتخذ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نبراساً هادياً له إلى الحق .

فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ **ولاتبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ (٢) .

ويقول عز من قائل :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ (٣) .

وفي تفسير آية المائدة ، يقول الإمام ابن كثير : « وقوله ﴿ **يا أيها الذين**

(١) الإمام أحمد : المسند ، ٦ / ٣٧١ - ٣٧٢ (نقلاً عن السلسلة الصحيحة للألباني برقم ١٣٦) .
(٢) الأعراف / ٨٥ .
(٣) المائدة / ٨ .

آمنوا **كونوا قوامين لله** ﴾ ، أي كونوا قائمين بالحق لله عز وجل ، لا لأجل الناس والسمعه ، وكونوا ﴿ **شهداء بالقسط** ﴾ أي : بالعدل لا بالجور ، ...... ، وقوله : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** ﴾ أي : لايحملكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد ، صديقاً كان أو عدواً ، ولهذا قال : ﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ أي عدلكم أقرب للتقوى من تركه » (١) ، ويقول غيره : « فلو كان كافراً ، أو مبتدعاً ، فإنه يجب العدل فيه ، وقبول ما يأتي به من الحق ، لا لأنه قاله ، ولايرد الحق لأجل قوله فإن هذا ظلم للحق » (٢) .

فمهما كان قدر الإنسان ، ومهما كانت منزلة علمه ، فإنه يجب عليه أن يقبل الحق ولو كان قائله من صغار تلامذته ، ونص الإمام النووي على وجوب قبول الحق حتى من صغار التلامذة بقوله : « وينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم ، وإن كان صغيراً » (٣) .

ويقول ابن قتيبة : « واعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال ، عمن هو فوقنا في السن والمعرفة ، وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ، وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، وعمن هو دوننا ، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سناً لحداثته ، ولاعن الصغير قدراً لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها ، فضلاً عن غيرها ، فإن العلم ضالة المؤمن ، من حيث أخذه نفعه ، ولن يزري بالحق أن تسمعه من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٣ / ٥٨ .

(٢) السعدي : تيسير الكريم الرحمن : ١ / ٤٦٥ .

(٣) النووي : آداب العالم والمتعلم ، ص ٣٩ .

من الكاشحين ، ولاتضير الحسناء أطمارها ، ولابنات الأصداف أصدافها ، ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة ، والفرصة تمر مر السحاب » (١) .

ثالثاً : إنصاف المخالف :

إن الناس ، لو تركوا على فطرتهم التي فطروا عليها ، ولم يشبها مايكدر صفاءها ، وتم تدعيم هذه الفطرة النقية بالحق ، لكان كافياً للناس أن تعرض عليهم الأمور ، فيعرفون المحق من المبطل ، وصاحب الحق من صاحب الزيف ، فلا يكون الإنسان محتاجاً إلى أكثر من عرض الحقائق ، بدون أي تلبيس أو تزيين أو تزييف ، ليكون قادراً على إنصاف الناس ومعرفة صاحب الحق .

وهذا الأمر مستفيض عند الناس قديماً وحديثاً ، حتى قالت العرب : إن أنصف بيت قالته العرب ، وهو بيت شاعر الإسلام ، حسان بن ثابت ، الذي يقول فيه :

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخير كما فداء(٢)

وكل صاحب نظر وعقل ، يعلم من هو شر الاثنين ، ومن هو خير البرية صلى الله عليه وسلم .

ومن عظيم ما يشهد لوجوب هذا المبدأ العظيم – أي انصاف المخالف والمناظر – ما قاله الله عز وجل ، في محكم التنزيل :

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ١ / ٢٠ .

(٢) العسكري : ديوان المعاني ، ١ / ١٩١ .

﴿ **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾[١] .

حيث يقول أهل التفسير في ذلك : « دلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له ،يجب أن يعطيهم كل مالهم من الأموال ، والمعاملات ، بل يدخل في عموم هذا ، الحجج والمقالات ، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ماله من الحجج ، فيجب عليه أيضاً أن يبين مالخصمه من الحجة التي لايعلمها ، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو ، وفي هذا الموضع ، يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه وتواضعه من كبره ، وعقله من سفهه » [٢] .

ويقول الله عز وجل :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾[٣] .

فهنا أمر الله بالعدل وعدم الحيدة عنه ، حتى مع النفس ، أو القريب ، ويقول ابن كثير : « وقوله : ﴿ **لاتتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى

---

(١) المطففين / ١ - ٣ .

(٢) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٥ / ٣٨٥ .

(٣) النساء / ١٣٥ .

والعصبية وبغضة الناس إليكم على ترك العدل في اموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان » (١) .

وقد كان تطبيق خير القرون ، لهذا المبدأ - الإنصاف - ، خير تطبيق فهذا عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم ، فقال : « والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه ، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض » (٢) .

رابعاً : تحرير محل الخلاف :

إن هذا المطلب - تحرير محل الخلاف - من المطالب الهامة في مباحث الخلاف ، بل يمكن درء الخلاف واجتنابه ، متى ما حرر محل الخلاف أصلاً ، وإن لم يدرأ الخلاف ، فهو يحجمه ويحدده ، وإن لم يحجمه ويحدده ، فهو يلغي شبه المخالف وينسفها نسفاً فإنه إذا حرر محل الخلاف ، عرفت الأمور المتفق عليها ، ومن خالف الأمور المتفق عليها ، فهو مضل مبطل تارك للحق ، ويقول تعالى :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٣٨٥ .

(٢) نفس المرجع ، ٢/٣٨٥ .

من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فإنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴾ (١) .

وفي هذه الآيات ، أقر الكافرون بكل ما سئلوا عنه ، ولما لم يؤمنوا ويتبعوا الحق الذي هو أحق أن يتبع ، عرف أنهم كاذبون ، فلا جدوى لإكمال الجدال معهم .

وتحرير محل الخلاف ، يحجم الخلاف ويحدده ، ويمنعه أن يأخذ أكبر من حجمه ، وهو يحدد الأرضيه المتفق عليها بين المختلفين - فهما يتفقان على نقاط الخلاف بينهما - فالتوسع في الحوار والجدل ، بغير تحديد منطلق ، لايوصل إلى طائل ، وفي مسائل الخلاف ، لايكون الاستطراد محبذًا ، بل هو مما يجب الابتعاد عنه ، لأنه قد يؤدي إلى إثارة أمور أخرى مختلف فيها ، فتزيد شقة الخلاف بدلاً من أن ترقع .

إن تحرير محل الخلاف يجعل الجهد كله منصباً على مناقشة نقاط الخلاف ، والتفكر فيها ، ويشهد لهذا قوله تعالى في آية سبأ : ﴿ .. **ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ..** ﴾ (٢) ، فيقول أهل التفسير في تفسير هذه الآية : «﴿ **ثم تتفكروا** ﴾ في أمر النبي وماجاء به من الكتاب ، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿ **ما بصاحبكم من جنة** ﴾ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً مجنون ، فقال الله سبحانه : قل لهم : اعتبروا أمري بواحدة ، وهي أن تقوموا لله ، وفي ذاته مجتمعين ، فيقول الرجل لصاحبه : هلم فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجل من جنة : أي جنون ، أو

(١) المؤمنون / ٨٨ .

(٢) سبأ / ٤٦ .

جربنا عليه كذباً ، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر وينظر ، فإن في ذلك مايدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنه رسول من عند الله ، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولامجنون » [١] .

وماقصة حبر هذه الأمة ، وترجمان القرآن ، عبد الله بن عباس مع الخوارج، إلا خير مثال في تطبيق مطلب تحرير محل الخلاف ، لتحجيم الخلاف وتحديده ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « لما اعتزلت الحرورية ، قلت لعلي : يا أمير المؤمنين ، أبرد[٢] عن الصلاة ، فلعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم ، قال : إني أتخوفهم عليك ، قال : قلت : كلا إن شاء الله ، فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية ، ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، فدخلت على قوم ، لم أر أشد اجتهاداً منهم ، أيديهم كأنها ثفن[٣] الإبل ، ووجوههم معلمة من آثار السجود ، قال : فدخلت ، فقالوا : مرحباً بك يا ابن عباس ، ما جاء بك ؟ وما هذه الحله ؟ قال : ماتعيبون علي ؟ لقد رأيت على رسول الله صلى عليه وسلم أحسن مايكون من هذه الحلل ، ونزلت ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ [٤] قالوا : فما جاء بك ؟ قال : جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليهم نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، وليس فيكم منهم أحد .

فقال بعضهم : لاتخاصموا قريشا فإن الله تعالى يقول ﴿ **بل هم قوم**

---

(١) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٤ / ١٩٨ .

(٢) أبرد : الإبراد هو إنكسار الوهج والحر (النهاية في غريب الحديث والأثر ، ١/١١٤) .

(٣) الثفنة : ركبة البعير : (القاموس المحيط ، ص ١٥٢٨) .

(٤) الأعراف / ٣٢ .

خصمون ﴾ (١) وقال رجلان أو ثلاثة : لو كلمتهم .

قال : قلت أخبروني ماتنقمون على ابن عم رسول الله وختنه ، وأول من آمن به ، وأصحاب رسول الله معه ؟ قالوا : ننقم عليه ثلاثا .

قال : وماهن ؟

قالوا : أولهن أنه حكم الرجال في دين الله ، وقد قال الله ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل .

قال : قلت وماذا ؟

قالوا : وقاتل ولم يسب ولم يغنم ، لئن كانوا كفارا لقد حلت له أموالهم ، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم .

قال : قلت وماذا ؟

قالوا : محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

قال : قلت أعندكم سوى هذا ؟

قالوا : حسبنا هذا .

قال : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم ، وحدثتكم من سنة نبيه مالا تنكرون أترجعون ؟

قالوا : نعم .

قال أما قولكم : حكم الرجال في دين الله ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها**

---

(١) الزخرف / ٥٨ .

الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ..﴾ إلى قوله ﴿ **يحكم به ذوا عدل منكم** ﴾[١] وقال في المرأة وزوجها ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله** ﴾[٢] أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق ، أم في أرنب ثمنها ربع درهم ، وفي بضع امرأة ؟ وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال .

قالوا : اللهم في حقن دمائهم واصلاح ذات بينهم .

قال : خرجت من هذه ؟

قالوا : اللهم نعم .

قال : وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمكم عائشة ، أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ، فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم ، وخرجتم من الإسلام ، إن الله يقول : ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** ﴾ [٣] فأنتم مترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم ، أخرجت من هذه ؟

فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : اللهم نعم .

قال : وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بما ترضون ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا قريشا يوم الحديبية أن يكتب بينه وبينهم

---

(١) المائدة / ٩٥ .

(٢) النساء / ٣٥ .

(٣) الأحزاب / ٦ .

كتابا ، فكاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان . فقال : اكتب يا علي هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله حقا وإن كذبتموني ، اكتب ياعلي : محمد بن عبد الله ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفضل من علي – رضي الله عنه . وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه . أخرجت من هذه ؟

قالوا : اللهم نعم . فرجع منهم خلق كثير ، وبقى منهم أربعة آلاف فقتلوا على ضلالة (١) .

ومن لوازم هذا المطلب ، أن يتم الإتفاق على المصطلحات ، لأن الخلاف ، قد لايكون خلافاً حقيقياً ، بل يكون خلافاً لفظياً ، لاختلاف مفهوم المصطلح بين الطرفين ، ولهذا قيل : لا مشاحة في الاصطلاح .

وكذلك عدم تشقيق الكلام ، وتزييفه ، وتزويقه ، وقد ورد في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من البيان لسحراً » (٢) ، وقد قاله صلى الله عليه وسلم في باب الذم ، وليس المدح كما ظن ذلك أناس .

وفي شرح هذا الحديث : « وكأنه أشار إلى الخطبة وإن كانت مشروعة في

---

(١) الإمام أحمد : المسند ، ١ / ٣٥٢ .

(٢) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب النكاح رقم ٥١٤٦ ، فتح الباري ١٠٩/٩ .

النكاح فينبغي أن تكون مقتصدة ، ولايكون فيها ، ما يقتضي صرف الحق إلى الباطل بتحسين الكلام ، والعرب تطلق لفظ السحر ، على الصرف ، تقول : ما سحرك عن كذا ؟ أي ماصرفك عنه ؟ » (١) ، ويقول الإمام ابن رجب الحنبلي في ذلك : « فيجب أن يعتقد أنه ليس كل من كثر بسطه للقول ، وكلامه في العلم ، كان أعلم ممن ليس كذلك ، وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين ، أنه أعلم ممن تقدم ، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابه ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله » (٢) .

وهكذا يتبين ، أن المطالب الأربعة السابقة ، لابد من توافرها ، ليتم تحقيق الموضوعية والتجرد ، ولاشك أن مطلب الموضوعية والتجرد ، مطلب عزيز ، وأصل هام ، فوجب على كل فرد – وبخاصة من يرتبط بالمجال التربوي – التحلي به ، ومراقبة النفس ، ومراجعتها ، للتأكد من محاولة عدم اتباع أهوائها ، وما أجمل ما أورده وأبدعه العلامة المعلمي ، عن حال الإنسان ، مع نفسه وهواها ، حيث يقول في كتابه الرائع « القائد إلى تصحيح العقائد » : « يفكر في حاله مع الهوى : افرض أنه بلغك أن رجلاً سب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآخر سب داود عليه السلام ، وثالثاً سب عمر أو علياً ، رضي الله عنهما ، ورابعاً سب إمامك ، وخامساً سب إماماً آخر ، أيكون سخطك عليهم ، وسعيك في عقوبتهم وتأديبهم أو التنديد بهم ، موافقاً لما يقتضيه الشرع ، فيكون غضبك على الأول والثاني قريباً

---

(١) نفس المرجع ، ١٠٩/٩ .

(٢) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف ، ص ٣٩ .

من السواء وأشد مما بعدهما جداً ، وغضبك على الثالث دون ذلك وأشد مما بعده ، وغضبك على الرابع والخامس قريباً من السواء ، ودون ما قبلها بكثير .

أفرض أن رجلاً تحبه ، وآخر تبغضه ، تنازعا في قضية ، فاستفتيت فيها ، ولاتستحضر حكمها ، وتريد أن تنظر ، ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه ؟ ، .... ، فتش نفسك ، تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين ، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية ، أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلى به ، فهل تجد استشناعك ماهو عليه ، مساوياً ما أنت عليه ؟ وتجد مقتك نفسك ، مساوياً لمقتك إياه ؟ .

فمسالك الهوى ، أكثر من أن تحصى ، وقد جربت نفسي ، أنني ربما انظر في القضية ، زاعماً أنه لاهوى لي ، فيلوح لي فيها معنى ، فأقرره تقريراً يعجبني ، ثم يلوح لي مايخدش في ذاك المعنى ، فأجدني أتبرم بذلك الخادش ، وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه ، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب ، وإنما هذا ، لأنني لما قررت ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني ، صرت أهوى صحته ، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس ، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ، ثم لاح لي الخدش ؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش ، ولكن رجلاً آخر ، اعترض علي به ؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه ؟ » [١] .

فهذا الأصل العظيم ، لو تم الإلتزام به ، من قبل كل فرد ، عالماً ، أو متعلماً ، بله عامة الناس ، لسهلت حلول المنازعات ، وسدت شقق الخلاف .

---

(١) المعلمي : القائد إلى تصحيح العقائد ، ص ٣١ – ٣٢ .

نماذج من تراث المفكرين التربويين في الموضوعية والتجرد

ولما كان بالمثال يتضح المقال ، فهنا بعض اللفتات الرائعة من أهل التربية الحقة من السلف الصالح ، فيما ما يتعلق بالموضوعية ومايندرج تحتها :

أ - في الإخلاص :

في رسالة أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، تجيء هذه اللفتة الرائعة في قوله :

« ولايمنعك قضاءٌ قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم لايبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل » (١) .

فهذا التوجيه التربوي من القائد لأحد أتباعه بأن يكون مخلصاً ، لايهمه أن يقال أخطأ فرجع عن كلامه - وما قد يتبع ذلك من رميه بضعف المحصلة العلمية - بل كان الحق هو المنار الذي يُسعى في الوصول إليه ، بغض النظر عن أي اعتبار آخر .

ولننظر إلى إمام جليل من أئمة الدين ، ومرب فاضل من أعظم المربين ، وكيف وصف حاله في تعليمه العلم لتلاميذه بل للناس أجمعين ، فيقول الإمام الشافعي رحمه الله :

« وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم ، على أن لاينسب إلي حرف منه »(٢) .

---

(١) ابن الجوزي : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ص ٢٠١ .

(٢) النووي : آداب العالم والمتعلم ، ص ٢٩ .

فأي معلم هذا ؟ ! تجرد وأخلص ، وضرب أروع مثال في نكران الذات ، وحب نشر العلم طاعة لله ، وأن لاينسب له أي فضل في ذلك ، بهذا يرقى العلم ، ويرتقي المعلم ، لا كما في الأزمنة المتأخرة ، عندما وُجِدَ من يقوم بسرقة مجهودات الآخرين ، وينسبها – ظلماً وعدواناً وفساداً – لنفسه ، فالله المستعان .

ب – قبول الحق ممن جاء به :

أورد ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ، أن رجلاً سأل علياً ، رضي الله عنه ، مسألة فقال فيها – أي فأجاب – فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال علي ، رضي الله عنه : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذي علم عليم (١) .

وهنا أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب ، من كبار علماء الصحابة ومن أوائل من أسلم ، لم يمنعه ذلك كله من أن يقبل الحق الذي جاء على لسان أحد أفراد الأمة ، فكيف الأمر لو كان بين عالم كبير وطالب علم ؟ ! بل بين معلم في مدرسة ابتدائية وتلميذه ؟ ! لاشك أن الجيل إذا أريد له أن يكون قوياً فكرياً ، يجب أن يهتم المربون بمثل هذه الأمور .

ويقول الإمام الشافعي : « ماكلمت أحداً قط إلا أحببت أن يسدد ويعان ، وما كلمت أحداً قط إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه »(٢) .

وهذا قمة في الإنصاف والموضوعية ، فهذا عالم قصده وغايته الحق ،

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٣١ .

(٢) النووي : آداب العالم والمتعلم ، ص ٢٩ .

سـواء أظهـر هذا الحق على لسـانه أو على لسـان العـالم المخـالف له ، فـلا اسـتكبـار عن الحق بل انقـيـاد له ، فـالحق لايعـرف بالرجـال ، ولكن الرجـال يعرفون بالحق (١) .

وهذا عـالم كـبيـر وهو إبراهيم بن الأشعث يسـأل أستاذه الفضـيل بن عياض عن التواضع فيجيبه قائلاً :

« أن تخضع للحق ، وتنقاد له ممن سمعته ، ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه (٢) .

جـ - الإنصاف :

يقول الإمام الشافعي ، حاكياً حاله عند المناظرة : « ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطيء » (٣) .

فهذا العالم يحب لأخيه كما يحب لنفسه ، وليس هدفه من مناظرته العلمية معه أن يغلبه ، أو أن يستعرض معلوماته العلمية ، بل كان قصده - كما هو ظاهر من مقاله - الوصول إلى الحق ، مع اعتبار أن مخالفه باحث عن الحق أيضاً .

ومن ينابيع التربية الإسلامية التي أثمرت مانفع الناس من نبات ، هذا أحد العلماء - حاتم الأصم - يقول : « معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي ، قالوا : وماهي ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه .

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٤٣ .

(٢)

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه ، ٢ / ٢٦ .

فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فقال : سبحان الله ، ماكان أعقله من رجل » [١] .

وهل إنصاف وعقل أكبر من الفرح لإصابة المخالف ، والحزن لخطأه ؟ وأين من هؤلاء أهل هذه الأزمان ؟ ! فهم يفرحون لخطأ مخالفهم ، ويحزنون لإصابته ، فزادت النفرة والفرقة ، واتسعت شقة الخلاف ، فما أجدر أهل العلم والتعليم والتربية بأن يستقوا من هذا المعين العذب ، مما يساعد على إخراج جيل سليم .

د - تحرير موضع الخلاف والبعد عن تشقيق الكلام :

إن من أوضح النماذج لهذا المطلب وأهميته ، ماورد قبل صفحات عدة في قصة عبد الله بن عباس ، رضي الله عنه ، مع الخوارج ، وكيف قضى على الخلاف قضاءً تاماً عبر مناقشة نقاط تم تحديدها سلفاً .

وليس العلم بكثرة الكلام وتشقيقه وزخرفته ، بل العلم كما قال الإمام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : « العلم نقطة كثرها الجاهلون » [٢] .

وكان الإمام الشافعي ، إذا تناظر مع أحد أقرانه من العلماء ، أو أحد تلاميذه ، في مسألة من المسائل ثم غدا إلى غيرها ، يوقفه الشافعي ، رحمه الله ، ويقول له : نفرغ من هذه المسألة ، ثم نصير إلى ماتريد [٣] .

فبهذه الطريقة ، يكون اهتمام العالم والعالم ، أو العالم والمتعلم ، أو المتعلم والمتعلم ، منصباً ومركزاً على نقطة واحدة ومحور واحد ، فيمكن الخروج بنتيجة من هذا الخلاف والنقاش .

---

(١) بكر أبو زيد : الرد على المخالف ، ص ٦٠ .

(٢) بكر أبو زيد : التعالم ، ص ٥ .

(٣) الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه ، ٢ / ٢٦ .

الأصل الثاني من أصول أدب الخلاف
في التربية الإسلامية
مراعاة الفروق بين الناس

لما تقرر سابقاً ، في الفصل السابق ، أن الفروق بين الناس ، قد تؤدي إلى حصول الخلاف ، دون النظر إلى الأسباب الأخرى ، عُلِمَ أن علاج هذا السبب يكمن في مراعاة الفروق بين الناس .

وفي هذا الأمر ، يقول العالم التربوي ابن مسكويه : وأما مراتب الناس في قبول هذه الآداب ، التي سميناها خلقاً ، والمسارعة إلى تعلمها والحرص عليها ، فإنها كثيرة ، وهي تشاهد وتعاين فيهم ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الإنسان في قبول الأخلاق الفاضلة ، وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة ، وأن فيهم المتواني والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير ، والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لا تحصى كثرة ، وإذا أهملت الطباع ، ولم ترض بالتأديب والتقويم ، نشأ كل إنسان على سوم طباعه (١) .

وبهذا يتبين فقه الإمام البخاري ، رحمه الله ، وعمقه التربوي ، حيث أورد بعض الأحاديث ، التي فهم منها أن أناساً قد خُصُّوا - دون غيرهم - ببعض العلم لاختلاف الأفهام ، مثل حديث الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، لمعاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، بقوله : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، قال : ألا أبشر الناس ، قال : لا إني أخاف أن يتكلوا » (٢) ، فالإمام البخاري قام بترجمة الباب المتعلق بهذه الأحاديث بقوله : « باب من خص بالعلم قوماً دون

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ، ص ٤٣ .

(٢) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب العلم ، (فتح الباري ١ / ٢٧٢) .

قوم كراهية ألا يفهموا . وقال علي : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ » [١] .

فقد قسم الترجمة إلى قسمين :

الأول : من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا ، فقد استنبط هذا من أحاديث الباب ، حيث خشي الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من اتكال الناس على هذا الحديث ، دون فهمه حق الفهم ، فيهوون في مهاو عظيمة .

والثاني : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله « وفي هذا إضافة للأثر الذي قاله عبدالله بن مسعود ، رضي الله عنه: « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان لبعضهم فتنة » [٢] .

فما أعظمها من نظرة تربوية ، من إمامين جبلين في العلم هما : أميرالمؤمنين ، علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، الذي أوتي نصيباً وافراً من العلم والفراسة ، وعبدالله بن مسعود ، رضي الله عنه ، صاحب القراءة الغضة الطرية ، وأحد العبادلة الفقهاء ، وقد أكد هذان الإمامان بمقالتيهما ، على عظم أهمية مراعاة أفهام الناس والفروق الفردية في ذلك ، وأن عدم مراعاة ذلك ، أمر يؤدي إلى الخلاف والفتنة ، وأي خلاف وفتنة ، أكبر من تكذيب الله ورسوله ، وهذا يدل على أن المربي أو قائل القول ، إذا لم يراع الفروق بين الناس ، ويقدر لهم التفاوت في الأفهام ، فإن ذلك يؤدي إلى الخلاف والفرقة .

---

(١) المرجع السابق ، ١ / ٢٧٢ .

(٢) مسلم : صحيح مسلم ، المقدمة ، ١ / ١١ .

فما من عالم إلا وفوقه من هو أعلم منه ، مما يؤكد مبدأ الفروق الفردية حيث يقول تعالى :

﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [١] .

حيث يرفع الله من يشاء بالعلم النافع ، وكل عالم فوقه من هو أعلم منه ، حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة عز وجل [٢] .

وهنالك من المتعلمين ، إذا تلقى علماً قبل أوانه أفسده وشوش عليه وضره كما يقول الإمام النووي عن المعلم مع تلميذه : « ولا يلق إليه شيئاً لم يتأهل له ، لئلا يفسد عليه حاله ، فلو سأله المتعلم عن ذلك لم يجبه ، ويعرِّفه أن ذلك يضره ولا ينفعه ، وأنه لم يمنعه ذلك شحاً ، بل شفقة ، ولطفاً » [٣] بل إن علماء التربية المسلمين ، قد عدُّوا مراعاة الفروق الفردية ، من الوظائف التي يجب على المعلم القيام بها ، فمن جميل ماذكره الإمام الغزالي عند حديثه عن وظائف المعلم المرشد ما يقتبس منه : « الوظيفة السادسة : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله .... ، وقال على رضي الله عنه – وأشار إلى صدره – : إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة ، وصدق رضي الله عنه ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ، هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للإنتفاع به ، فكيف فيما لا يفهمه ؟ ... ، ولذلك قيل : كِلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزِنْ لـه بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت

---

(١) يوسف / ٧٦ .

(٢) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٢ / ٤٢٩ .

(٣) النووي : آداب العالم والمتعلم ، ص ٣٥ .

المعيار ، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كتم علماً نافعاً ، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » ؟ فقال : اترك اللجام واذهب ، فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني ، فقد قال تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » ، تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق ، بأقل من الظلم في منع المستحق :

أأنثـر دراً بين سارحة النعم ... فـأصبح محزوناً بـراعية الغنم
لأنـهم أمسوا بجـهل لقدره ... فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فـإن لطف الله اللطيف بلطفه ... وصـادفت أهلاً للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة ... وإلا فمخـزون لـدي ومكـتتم
فمن منح الجهال علماً أضاعه ... ومـن منع المستوجبين فقد ظلم»(١)

فلا يستقيم كون الناس كلهم على نمط واحد ، بل « إني أعجب من ناس يقولون : كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد ومنهاج واحد ، وهذا ما يستقيم ، ولايقع به نظام ، ... ، والعاقل الحصيف يعلم أنه لابد من التفاوت الذي يكون به التصالح ، كالعالم والمتعلم ، والآمر والمأمور ، ....، وعلى هذا وقع التفاوت في العقول ، فصار هذا يملك بعقله مالا يملكه الآخر ، فهذا ينظر في الطب ، وذاك في النحو ، وغيرهما في الهندسة ، وآخر في الفقه » (٢) .

ولما كانت الفهوم تتفاوت ، وجب على من كان عليه التعامل مع ذوي الأفهام

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ، ١ / ٥٧ - ٥٨ .
(٢) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، ص ١١٧ ، ١٤٥ .

المختلفة ، أن يتبع الطرائق المتنوعة والمتعددة للوصول إلى مقصده باختلاف أفهام المخالفين ، بل ومنع حصول الخلاف ابتداء .

ويمكن منع حصول الخلاف ابتداء – في حالة مراعاة الفروق والتفاوت في الأفهام – ومنعه يكون بطرح الحقائق المتناسبة مع فهم مقابله ، والتدرج في طرح الحقائق ، وهذا الأمر – أي التدرج – يعده بعض العلماء من التبشير والتيسير ، فعندما شرح الإمام ابن حجر العسقلاني ، حديث أنس ، رضي الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[١] فهنا قال ابن حجر : « لما كانت النذارة – وهي الإخبار بالشر – في ابتداء التعليم توجب النفرة ، قوبلت البشارة بالتنفير ، .... ، وكذا تعليم العلم ، ينبغي أن يكون بالتدريج ، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً ، حبب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانبساط ، وكانت عاقبته غالباً الازدياد ، بخلاف ضده ، والله أعلم » [٢] .

إن عدم مراعاة الفروق الفردية ، يؤدي في أحيان كثيرة ، إلى فشل عملية التعليم ، ويضيع الأوقات النفيسة والجهد الغالي ، ومما أورده الماوردي في سياق معرفة ظروف المتعلم واستعداداته ، مما يتعلق بهذا الجانب قوله : « وينبغي أن يكون للعالم فراسة ، يتوسم بها المتعلم ، ليعرف مبلغ طاقته ، وقدر استحقاقه ، فإنه أروح للعالم ، وأنجح للمتعلم ، وإذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً ، لم يضع له عناء ، ولم يخب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسمهم ، وخفيت عليه أحوالهم ، ومبلغ استحقاقهم ، كانوا

---

(١) البخاري الجامع الصحيح : كتاب العلم ، رقم ٦٩٩٦ ، فتح الباري ١ / ١٩٦ .

(٢) العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ١ / ١٩٦ – ١٩٧ .

وإياه في عناء مكد ، وتعب غير مجد »[١] .

وبهذا يمكن استنباط أسلوبين ووسيلتين ، في إيصال المعلومة ، يمكن عن طريقهما منع حصول الخلاف ابتداء ، وهما التخصيص ، والتدرج .

والتخصيص يعني : أن يُخصَّ بالعلم أو الحديث قومٌ ، دون آخرين ، نظراً لمعرفة المعلم أو المناقش بهم ، وأن أفهامهم تدرك الموضوع المطروح للتعلم أو للنقاش ، وبهذا يضمن أنه لن يحصل خلاف - هذا إذا كان مايطرحه صحيحاً أصلاً - بينه وبينهم ، وبهذا تزول إشكالات عديدة .

أما التدرج في عرض الموضوعات فلابد منه ، لئلا تحصل النفرة ، أو الاستغراب والتكذيب ، فكما قيل : « الإنسان عدو ماجهل » ، فلابد من أن تعرض الموضوعات بطريقة غير تصادمية مع الأفكار المسبقة أو الذهن الخالي عن الموضوع ، وبذلك يكون الطرح أدعى للقبول .

وهذا الأمر راعاه سيد ولد آدم ، صلى الله عليه وسلم ، في حديث عائشة أم المؤمنين ، الذي يرويه عنها ابن الزبير ، قالت : « قال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يا عائشة : لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير بكفر - لنقضت الكعبة ، فجعلت لها بابين : باب يدخل الناس ، وباب يخرجون »[٢] فأي إشراقة عبقرية للإمام للبخاري ، عندما سمي هذا الباب بـ : « باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه »[٣] ، ويقول ابن حجر رحمه الله ، في شرح الحديث : « وفي الحديث معنى ماترجم

---

(١) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ٨٩ .

(٢) البخاري الجامع الصحيح ، كتاب العلم رقم ٢٦ ، فتح الباري ١ / ٢٧١ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ١ / ٢٧١ .

له ، لأن قريشاً كانت تعظم أمر الكعبة جداً ، فخشى صلى الله عليه وسلم : أن يظنوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام . أنه غير بناءها ، لينفرد بالفخر عليهم » (١)

وهذا صحيح ، فلو فعل ذلك الأمر ، لأدى – في ذلك الوقت – إلى الخلاف والفرقة والشقاق ، ولكن المربي العظيم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يدرك عواقب الأمور ، فليس كل الأمة الصدِّيق ، بل فيهم المؤلفة قلوبهم ومن يعبد الله على حرف ، فراعى ، صلى الله عليه وسلم ، هذا الأمر وتلافى الخلاف ، بعد أن قدر المصالح والمفاسد المترتبة على ذلك الفعل .

ومن مطالب مراعاة الفروق ، أن تراعى حالة الشخص المقابل ، فيعالج الخلاف بحسب حالة المقابل ، سواء قبل حصول الخلاف لمنعه ، أو بعد حصول الخلاف لتجنب آثاره السيئة .

ففي حالة وقوع الخلاف ، يجب على من يريد سد شقة الخلاف ، أن يسلك الطريقة الملائمة مع مقابله ، فلا يستخدم مصطلحات العلماء مع من بضاعته من العلم مزجاة ، ولايعمد إلى الاختصار المخل ، في موضوع يحتاج للبسط ، بل يعطي الأمور حقها ، فما تطاول سفيه ، واستعلى جاهل في خلاف ممقوت ، وكان رجوعهما قريباً ولم يرجعا ، إلا بسبب عدم التدرج في حوارهما ، والتنزل معهما لرفعهما من وهدة جهلهما .

ولحبر هذه الأمة ، عبدالله بن عباس ، رضي الله عنهما ، قصة عجيبة ، تدل على مدى فقهه ، وعمق معرفته بواقع الحال وحال المستفتي ، حيث جاء رجل إلى عبدالله بن عباس ، رضي الله عنهما ، فقال له : ألمن قتل مؤمناً توبة ؟ قال :

إلى النار ، فلما ذهب وانصرف ، قال له جلساؤه : ما هكذا كنت تفتينا ، فما شأن اليوم :؟ قال : إني أحسبه مغضباً ، يريد أن يقتل مؤمناً ، فبعثوا في أثره ، فوجدوه كذلك ، وسأله سائل آخر ؛ هل لمن قتل توبة ؟ قال : نعم فلما سئل عن الاختلاف في الفتويين ، قال : رأيت في عيني الأول ، أنه يقصد القتل ، فقمعته ، وأما الثاني فكان صاحب واقعة يطلب المخرج (١) .

وبهذا الفهم وهذا التعامل ، كان الجيل الأول .

ولكي يصل هذا الجيل إلى ما وصل إليه الجيل الأول ، يجب أن يكون التعامل مع كل فرد في العملية التعليمية ، بل في كل شيء ، بحسب هذا الفرد ، فـ « لايمكن أن يتشابه فردان أبداً ، ولايوجد أي بحث علمي يمكن أن يبين أن هناك فردين متماثلان تماماً في التكوين أو السلوك ، وإذا كانت الحاجة تدعو في بعض الأحيان إلى مقارنة الفرد بغيره ، إلا أن الاهتمام يجب أن يوجه إلى الفرد باعتبار أنه يختلف عن غيره من الأفراد » (٢) .

فلكل فرد ما يناسبه ، ولكل متعلم ما يلائمه من معلومات ومن طريقة تعامل ، لكي يتلافى المعلم والموجه حصول الخلاف .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ١ / ٢٧١ .

(١) النووي : آداب العالم والمتعالم ، ص ٧٢ - ٧٣ .

نماذج ومقالات من تراث المفكرين التربويين الإسلاميين

في مراعاة الفروق الفردية

إن مافعله الإمام الحبر عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما ، في المثال الوارد في الصفحة السالفة ، ليؤكد على أهمية مبدأ مراعاة الفروق بين الناس .

وليس كل إنسان محيطاً بكل شيء ، بل هناك من ينفرد بعلم من العلوم ، فتجده عالماً في علمه ، عامياً في غيره ، ويقول ابن قتيبة : « المنفرد بفن من الفنون لايعاب بالزلل في غيره ، وليس على المحدث عيب أن يزل في الإعراب ، ولاعلى الفقيه أن يزل في الشعر »[١] فلابد من إنزال الناس منازلهم .

بل إن المتعلم إذا سأل عن أمر ما ، لاينفعه ، بل فيه ضرر ، فيجب أن يقوم المعلم بتنبيهه على ماهو خير له ، وأن ينهاه عن مايضره ، وهنا مثال رائع :

« قال المزني : إن كان أحد يخرج ما في ضميري ، وماتعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي ، فصرت إليه ، وهو في مسجد مصر ، فلما جثوت بين يديه قلت : هجس في ضميري مسألة في التوحيد ، فعلمت أن أحداً لايعلم علمك ، فما الذي عندك ؟ فغضب ، ثم قال : أتدري من أنت ؟! قلت : نعم ، قال : هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون ، أبلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر بالسؤال عن ذلك ؟ قلت : لا ، قال : هل تكلم فيه الصحابة ؟ قلت : لا ، قال : تدري كم نجماً في السماء ؟ قلت : لا ، قال :

---

(١) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٨ .

فكوكب منها تعرف جنسه ، طلوعه ، أفوله ، مم خلق ؟ قلت : لا ، فقال : فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه ، تتكلم في علم خالقه !! .

ثم سألني عن مسألة في الوضوء ، فأخطأت فيها ، ففرَّعها على أربعة أوجه ، فلم أصب في شيء منها .

فقال : شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات ، تدع علمه ، وتتكلف علم الخالق ، إذا هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى :

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض ﴾ (١) الآية فاستدل بالمخلوق على الخالق ، ولا تتكلف علم مالم يبلغه عقلك ، قال : فتبت » (٢) .

ففي هذا النموذج الرائع : رأى الأستاذ - الشافعي - الحاني على تلميذه - المزني - أن تلميذه طلب بلوغ علم لم يبلغه عقله ، فأرشده إلى ماهو خير له ، ولم يتأت له ذلك إلا لأنه عرف مقامات الطلاب وما يصلح لهم .

ومراعاة الفروق مهمة للغاية ، إذا كان المعلم يقصد أن ينشأ جيلاً قويماً مترابطاً ، وانظر إلى قول معلم عظيم فيما يقول :

يقول الخليل بن أحمد : « إذا أخطأ بحضرتك من تعلم أنه يأنف من إرشادك ، فلا ترد عليه خطأه ، لأنك إذا نبهته على خطأه أسرعت إفادته واكتسبت عداوته » (٣) .

فأي نظرة تربوية جميلة تحلى بها هذا الخليل الفريد في علمه وفهمه ،

---

(١) البقرة / ١٦٣ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٠ / ٣٢ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٢٧ .

فـهو ينصح كل مـعلم ، أن ينتبـه لتـلامـيذه وأخطـائهم ، ويفـرق بين من يتـقـبل التـعليم والتـوجيه ، ومن يعسـر عليـه ذلك ، فكانت نظرته التربوية عميقة عندما يقول : « أسرعت إفـادته واكتسبت عداوته » فـالعلم ليس غـاية تتحطم كل القيم عندهـا ، بل العلم مـهم ولكن يجب أن يكون تقـديمه بطريقة صـحـيـحة سليمـة لاتؤدي إلى العداوة والفرقة والخلاف .

الأصل الثالث من أصول أدب الخلاف

في التربية الإسلامية

العلم واحترام التخصص العلمي

إن العاقل ليعلم أن العلم ، من أهم الشروط والأمور المطلوب توافرها لردم هوة الخلاف ، بل لا شيء غير العلم يكاد يفعل ذلك ، فالعلم شرط لقمع الخلاف ، ولابد من الإتيان بالشرط ، ليتم المشروط ، كما قال الأول :

وفاقد الشرط بالمشروط لا يأتي   حسن البدايات شرط للنهايات (١)

ويقول الله عز وجل ، مبيناً فضل العلماء ومنزلتهم :

﴿ ومن الناس والأنعام والدواب مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ (٢) .

ومما أورده المفسرون ، في تفسير هذه الآية العظيمة : « إنما يخشاه حق خشيته ، العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم ، القدير ، العليم ، الموصوف بصفات الكمال ، المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر ، ..... ، فكل من كان بالله أعلم ، كان أكثر له خشية ، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي ، والاستعداد للقاء من يخشاه ، وهذا دليل على فضيلة العلم ، فإنه داع إلى خشية الله » (٣) .

ويذكر ابن رجب مانصه : « وقال ابن مسعود وغيره : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً ، وقال بعض السلف : ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكن العلم : الخشية ، وقال بعضهم : من خشي الله فهو عالم ، ومن عصاه فهو جاهل .

وكلامهم في هذا المعنى كثير جداً ، وسبب ذلك ، أن هذا العلم النافع يدل على

---

(١) العسكري : ديوان المعاني ، ص ٢١٩ .

(٢) فاطر / ٢٨ .

(٣) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٤ / ٢١٦ .

أمرين :

أحدهما : على معرفة الله ، ومايستحقه من الاسماء الحسنى ، والصفات ، والأفعال الباهرة ، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه .

والأمر الثاني : المعرفة بما يحبه ويرضاه ، وما يكرهه ويسخطه ، من الاعتقادات ، والأعمال الظاهرة والباطنة ، والأقوال ، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى مافيه محبة الله ورضاه ، والتباعد عما يكرهه ويسخطه » (١) .

ولايستطيع منكر مجادل أن ينكر فضل العلم ، وعلو درجة أهل العلم ، بل يقول علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : « كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه » (٢) .

ولا سواء بين أهل العلم وغيرهم ، فالله ، عز وجل ، يقول :

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (٣) .

بل يشهد لهم في عظم منزلتهم ، وعلو قدرهم ، أن الله أشهدهم في قوله :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٤) .

ففي هذه الآية : « فضيلة العلم والعلماء ، لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وجعل من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ، ودينه ، وجزائه ، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة

---

(١) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على الخلف ، ص ٣٨ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ٥٩ .

(٣) الزمر / ٩ .

(٤) آل عمران / ١٨ .

الصادقة ، وفي ضمن ذلك : تعديلهم ، وأن الخلق تبع لهم ، وأنهم هم المتبوعون ، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ، مالايقادر قدره » (١) .

وأهل العلم ، هم أهل العقول الراجحة الواعية ، وأهل الأفهام السديدة ، يقول الله عز وجل :

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ﴾ (٢) .

وهؤلاء العالمون الراسخون في العلم المتدبرون ، هم أهل العلم الحقيقي ، الذين وصل العلم إلى قلوبهم ، وهذا مدح للأمثال التي يضربها ، وحث على تدبرها وتعقلها ، ومدح لمن يعقلها ، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم ، فعُلِمَ أن من لم يعقلها ليس من العالمين ، والسبب في ذلك : أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن ، إنما هي للأمور الكبار ، والمطالب العالية ، والمسائل الجليلة ، فأهل العلم يعرفون أهميتها وعظمها ، ومن لم يعقلها فليس من أهل العلم ، لأنه جهل الكبير العظيم ، فالصغير من باب أولى (٣) .

المرجعية العلمية :

ومن لوازم هذا الأصل من أصول أدب الخلاف في التربية الإسلامية ، وجود المرجع الذي يرجع إليه للاستعلام ورفع الخلاف .

وليس أدل من قوله تعالى ، في التدليل على منزلة أهل العلم العظيمة ، حيث يقول عز وجل :

---

(١) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ١ / ٢٣٥ .

(٢) العنكبوت / ٤٣ .

(٣) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٤ / ٦٢ - ٦٣ .

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١) .

« وعموم هذه الآية فيها مدح العلم ، وأن أعلى أنواعه : العلم بكتاب الله المنزل ، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث ، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم ، وتزكية لهم ، حيث أمر بسؤالهم ، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة ،....، وفيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم ، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه ، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم ، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم » (٢) فلا يتصور عاقل أن يتم الاتفاق على أمر مختلف فيه ، دون تحديد المرجع الذي يُتَفَقُ على الرجوع إليه لحسم الخلاف ، فلو اختلف شخصان في أمر متعلق بالأحكام الشرعية التي يظهر فيها الحق من غيره عند البحث ، يرجع إلى أصول الشريعة كالكتاب والسنة ، وإن كان الخلاف في أثر مركب علاجي ، يتم الرجوع إلى أصول ومصادر علوم الأدوية ، وإن حصل الخلاف في شأن لغوي ، يرجع إلى أصول اللغة ومصادرها الأصلية ، وكذا لو كان الخلاف في معلم جغرافي ، فَيُرجَعُ إلى الأصول المعنية بهذا الأمر ، وهكذا في كل أمر من الأمور المختلف فيها .

ويؤكد ذلك ماقاله المفسرون في قوله تعالى :

﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ (٣) .

حيث يقولون : « **﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾** أي : يستخرجونه بفكرهم

---

(١) النحل / ٤٣ .

(٢) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٣ / ٦٢ .

(٣) النساء / ٨٣ .

وآرائهم السديدة ، وعلومهم الرشيدة ، وفي هذا دليل لقاعدة أدبية : وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ، ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك ، ويجعل إلى أهله ، ولايتقدم بين أيديهم ، فإنه أقرب للصواب ، وأحرى للسلامة من الخطأ » (١)، وهذا يدل دلالة قوية ، على وجوب وجود مايرجع إليه لحسم الأمر عند الخلاف .

- العلم يسد باب الخلاف :

إن أهمية العلم ، وخاصة في ميدان الخلاف ، أمر لاجدال فيه ، فبعد ثبوت العلم البين ، لابد من القطع به والجزم ، والوقوف عنده وعدم تعديه إلى ماسواه .

ومن نور الوحيين الشريفين ، استمد الصحابة الكرام هذا الأصل وصبغوا به سلوكهم وتصرفاتهم ، وحسموا الأمور التي اختلفوا فيها بالعلم .

فأول خلاف حصل في الإسلام بعد وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان في وفاته ، ثم في دفنه ، فقد أنكر بعض الصحابة ، أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قد مات وأنتقل إلى الرفيق الأعلى ، فكان خلافاً ، قام على إثره الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وتلا على الصحابة قوله ، عز وجل :

﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ (٢) .

وقال : من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد ، فإنه حيٌ لايموت ، وبذلك قطع الصديق رضي الله عنه باب الخلاف في هذه المسألة ، وحصل بعد ذلك خلاف آخر ، وكان موضوعه ، أين يدفن صلى الله عليه وسلم ؟ فرأى بعض الصحابة أن يدفن في مكة ، ورأى بعض الصحابة أن يدفن في بيت المقدس ، عند قبر أبيه إبراهيم ، واستمر هذا الخلاف حتى لم يقطعه إلا أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، بعلمه بالحديث الذي يرويه عن النبي ، صلى الله

---

(١) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ١ / ٣٧٨ .

(٢) الزمر / ٣٠ .

عليه وسلم أنه قال : « إن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون » فدفن في حجرته الشريفة [١] .

ويرى المتأمل أن رسل الله ، صلوات الله عليهم ورحمته ، كانوا يقابلون مخالفيهم محتجين عليهم بالعلم ، في آيات كريمات كثر ، كقوله تعالى :

﴿ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ [٢] .

وقوله تعالى :

﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ [٣] .

وقوله تعالى :

﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ [٤] .

وكقوله عز وجل :

﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ [٥] .

والعلم في هذا الموضع – ليسد باب الخلاف – يستلزم ثلاثة أمور :

أ – العلم بموضوع الخلاف : فمن كان جاهلاً ، أداه جهله إلى اللجج والجدال الباطل ، أو إلى التعالم .

ب – العلم بحال المخالف : وهذا مرتبط بالأصل المتعلق بمراعاة الفروق الفردية ، والذي بسط في مكانه في هذا البحث [٦] .

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ١٤ – ١٥ .

(٢) الأعراف / ٦٢ .

(٣) هود / ٨٨ .

(٤) مريم / ٤٣ .

(٥) يوسف / ٩٦ .

(٦) انظر / ص

جـ - العلم بنوع الخلاف : ومعرفة هل هو من خلاف التنوع أو التضاد أو غيره ، مما جاء تفصيله في الأصل المتعلق بفهم طبيعة الخلاف (١) .

فالعلم بموضوع الخلاف أمر مطلوب ، فكما نهى الله عز وجل عن الجدال بغير علم ، فقد ورد الأمر بالجدال لصاحب العلم واليقين ، بقوله تعالى :

﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (٢) .

ويقول بعض العلماء ، في أهمية المعرفة بموضع الخلاف : « لاينبغي لمن لايعرف الاختلاف أن يفتي ، ولايجوز لمن لايعلم الأقاويل ، أن يقول هذا أحب إلي » (٣) .

وهكذا فكل خلاف ، يمكن رفعه عن طريق العلم ، فعن عبدالله بن عباس ، رضي الله عنهما ، أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسَرْغ (٤) ، لقيه أمراء الأجناد ، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، قال ابن عباس : فقال لي عمر : أدع لي المهاجرين الأولين ، فدعوتهم ، فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : خرجت لأمر ، ولانرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس ، وأصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولانرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي الأنصار ، فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم ، فلم يختلف

---

(١) انظر / ص

(٢) النحل / ١٢٥ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١/١٢٩ .

(٤) سرغ : موقع قرب الشام بين المغيثة وتبوك (القاموس المحيط) .

عليه منهم رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ، ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر ، رضي الله عنه ، في الناس ، أني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنه ، : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر ، رضي الله عنه : لو غيرك قالها يا أباعبيدة – وكان عمر يكره خلافه – نَعَم ، نفر من قدر الله ، إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك أبل ، فهبطت وادياً له عدوتان ، إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ؟ وإن رعيت الجدبة ، رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبدالرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، – وكان متغيباً في بعض حاجته – فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض ، فلا تخرجوا فراراً منه ، فحمد الله تعالى عمرُ رضي الله عنه ، وانصرف (١) .

وبهذا يتضح كيف قام العلم – الحقيقي – بسد هوة الخلاف ، وجعل الجميع في اتفاق ، ليس في هذا الأمر ، أو هذه النازلة فحسب ، بل في كل أمر من الأمور المختلف عليها .

- « **تأسيس علم الجهل** » :(٢)

ويأتي تأسيس علم الجهل ، علاجاً لجهل الجهل الذي هو شر من الجهل ، فـ «تأسيس علم الجهل ، سوف يعيد للعلم احترامه الذي لا نماء له بدونه ، بحيث يعتاد الناس الإحساس بعظمة العلم وشموخ بنائه ، فلا يحاولون التطاول بالمشاركة إلا بعد استعداد كامل » .

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الطب رقم ٥٧٢٩ .

(٢) العنوان مقتبس من مقالة لابراهيم البليهي ، جريدة الرياض ، الخميس ١٤١٤/٦/١٩هـ عدد رقم ٩٢٩٢ ، ص ٩ .

إن المتأمل في حال كثير من المناقشات ، وحالات الجدل المختلف فيه بين الناس ، ليجد أن المرتفعة أصواتهم هم الذين لم يسمعوا بالموضوع إلا الساعة ولم يعيروه قبلاً أي اهتمام ، ولو تكلم متخصص - في نفس الموضوع - لجُهّل في مثل هذا الجو غير العلمي .

وفي مثل هذا الزمن ، لامكان لمن يقول : أعلم علماً كثيراً في تخصصات كثيرة متباينة تبايناً كبيراً ، فالعالم الحكيم يقول : « لم أطلب العلم لأبلغ أقصاه ، ولكن لأعلم مايسعني جهله »(١) ، بل يجب أن يقوم نوع من الأحترام للتخصص العلمي ، فمن أفنى عمره في مجال علمي معين ، لايجوز أن يشغب عليه من لم يخطر له هذا التخصص ببال .

إن شهوة النفس للتصدر ، وإمساك زمام الحديث في المجالس والمنتديات بغير ضبط واتقان ، تكون وخيمة العاقبة لفاعلها ، لأنه سيُفتضح أمره عاجلاً أو آجلاً ، بعد ما تسبب فعله ذلك في إثارة الخلاف ، ولله در من قال :

إذا ما تحدثت في مجلس ... تناهى حديثي إلى ماعلمت

ولم أعد علمي إلى غيره ... وكنت إذا ما تناهى سكتُّ (٢)

وليس من العلم في شيء ، أن يخالف غير متخصص متخصصاً ، في أي علم من العلوم ، أو أي فن من الفنون ، و« لا عجب ، فإن الله تعالى ، جعل لكل مقام مقالاً ، وخلق لكل فن رجالاً ، فكم من فقيه غائص في بحار العلوم القياسية ، عار عن تنقيد الأدلة الأصلية ، وكم من محدث نقاد ، عار عن تفريع الفروع الفقهية ، وتأصيلها على القواعد الأصلية ، وكم من مفسر خائض في القرآن ، لا تمييز له في معرفة الأحاديث الصحيحة والسقيمة ، ولا امتياز له بين المشهورة وبين المصنوعة ،

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١٣٣/١ .

(٢) نفس المرجع ، ١ / ١٣٢ .

فإذن الواجب : أن ننزل الناس منازلهم ، ونوفيهم حظهم ، ونعرف مرتبتهم وقدرهم ، فلا نعرج الأدنى إلى مرتبة الأعلى ، ولا ننزل الأعلى إلى مرتبة الأدنى ، ونعرف مايتعلق بكل فن من أهل ذلك الفن ، لا من مهرة غير ذلك الفن ، فإن صاحب البيت أدرى بما فيه ، والماهر في شيء أعلم من غيره بما يتعلق به » (١) .

فما أعقلها من نظرة ، وأعذبها من نبرة ، يتحلى بها المعلم وطالب العلم في الوقوف عند حد ما يعلمونه ويجيدونه ، فيكون قولهم في الأمر الذي خبروه ، قول بصيرٍ بالأمر عارفٍ به ، فيقطع حجة المخالف ويسد باب الخلاف ، وكما قال الأول :

إذا ماقتلت الأمر علماً فقل به وإياك والأمر الذي أنت جاهله (٢)

وهذا سيد الخلق ، صلى الله عليه وسلم ، يُسْأَلُ عن الأمر الذي لايعلمه ، فلا يجيب ولا يتكلف الجواب في انتظار الوحي متبعاً لقوله تعالى :

﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾ (٣) .

فبهذا الهدي ، وبهذه النفسية ، يكون تقريب وجهات النظر بين المتخالفين أيسر ، وتتضح الصورة في ذهن الإنسان ، أذ الأصل عنده أنه لايعلم شيئاً إلا مافطر عليه ، كما قال تعالى .

﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ (٤) .

فيكتسب بذلك احترام العلم وتقديره في نفسه ، ويعلم ضحالة علمه مهما بلغ من علم ، بل لايعدو علمه إلا أن يكون دليلاً على مدى جهله .

---

(١) عبد الحي اللكنوي : الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، ص ٥ - ٦ (بتصرف يسير) .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ٢ / ٥٥ .

(٣) ص / ٨٦ .

(٤) النحل / ٧٨ .

فـلا يشـغب على عـالم في علمـه ، ولا يجـادل مـتـفنناً في فنه ، ولا يخـالف متخصصاً في تخصصه .

وينتج عن تـأسيس علم الجهل مـسـألة مـهمـة جداً ، وهي احـترام التـخـصص العلمي ، فيُعرفُ أن لكل تخصص أهميته ورسالته التـي يقوم بها في خدمة المعرفة وأهداف المجتمع ، ونتيجة لذلك تكون التكاملية بين التـخصصات والفنون المختلفة التي تسـاعد على الإجتمـاع وتوحيد الكلمة ونبذ الفرقة ، وتسـهل عملية التـعلم والتعليم والبحث العلمي ، فيكون صاحب كل تخصص على يقين من أنه يخدم غيره من التخصصات ، كما أن غيره من التخصصات تخدمه ولاشك .

نماذج من تراث المفكرين التربويين الإسلاميين

في العلم واحترام التخصص العلمي

إن الناظر في كيفية تطبيق سلف هذه الأمة للأصل المتعلق بالعلم واحترام التخصص العلمي ، ليجد أمثل وأجود تطبيق في مقالاتهم ومحاوراتهم .

فتجد من نصائح الآباء والمربين لتلاميذهم مثل قول ذلك الرجل الحكيم لابنه : « يابني خذ من كل علم بحظ وافر ، فإنك إن لم تعلم جهلت ، وإن جهلت شيئاً من العلم عاديته وعزيز علي أن تعادي شيئًا من العلم » [(١)] .

وفي هذه النصيحة تنبيه عظيم على خطورة معاداة فرع من فروع العلم النافع ، بل يجب أن يفهم المتعلم أن فروع العلم يخدم بعضها بعضاً ، ومن كان له حظ ونصيب في مجال علمي معين ، يجب أن يحترم زملاءه في المجالات العلمية الأخرى ، وهذا يتضح في النموذجين التاليين :

« قال أحمد بن حنبل : قال لنا الشافعي : أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه » [(٢)] .

و« جاء رجل إلى الأعمش ، فسأله عن مسألة ، فلم يجبه فيها ، ونظر فإذا أبو حنيفة ، فقال : يانعمان قل فيها ، قال : القول فيها كذا ، قال : من أين ؟ قال : من حديث حدثتناه ، فقال الأعمش : نحن الصيادلة وأنتم الأطباء »[(٣)] .

وبالفعل خدم كل صاحب علمٍ قرينه بعلمه ، كالصيادلة والأطباء ، ونجد

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٣٠ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٠ / ٣٣ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٣١ .

هؤلاء الأفذاذ قد احترموا أقرانهم من العلماء في مجالاتهم التخصصية ، بينما لو تركوا أخذ كل علم من أهله العارفين به ، لوقع التفاوت الكبير والخلاف العظيم .

وكان العلماء يقدرون المتخصصين في تخصصاتهم ، ويعرفون أنهم أهل ذلك الفن ، فهم يتفوقون على غيرهم فيه .

وفي ذلك يقول الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام : « ماناظرني رجل قط وكان مفنناً في العلوم إلا غلبته ، ولاناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني »[١] .

إن قائل هذا القول ليس نكرة بين العلماء ، بل هو من الجهابذة أصحاب المصنفات العظيمة النفع ، ومع ذلك فهو يقدر للمتخصص قدره ، وينزله منزلته ، وأنه أعلم من غيره في فنه الذي تخصص به .

والعالم - عند السلف - ليس هو الذي لايجهل شيئاً ، فهذا متعذر ، ولكن الأمر كما يقول أحد هؤلاء الأفذاذ : « لايزال العالم عالماً ما لم يجسر في الأمور برأيه ، ولم يستحي أن يمشي إلى من هو أعلم منه »[٢] .

وهذا بمعنى أن التعلم مستمر مهما بلغ العالم في علمه ، وأن الأصل المطلوب للتعلم هو أن يعلم الإنسان أنه يجهل مايود أن يتعلمه ، كما قال أحد العلماء : « ليس معي من العلم إلا أني لست أعلم » .

فهذا العالم أسس قاعدة مفادها ، أن من علمه أنه يعلم أنه لايعلم ، فلن يضيره أن يتعلم ليصبح عالماً فيما كان يجهله .

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ١ / ١٣٠ .

(٢) نفس المرجع ، ١ / ١٢٧ .

وهذا الأصل يسقط الخلاف كما قال أكثم بن صيفي : « لو سكت من لايعلم سقط الاختلاف » (١) .

ولم يكن العلماء المربون ، يجرؤون على القول بغير علم ، فقد « جاء رجل إلى القاسم بن محمد ، فسأله عن شيء ، فقال : لا أحسنه ، فجعل الرجل يقول : إني رفعت إليك ، لا أعرف غيرك ، فقال القاسم : لاتنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي ، والله ما أحسنه .

فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا ابن أخي ، الزمها ، فو الله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم ، فقال القاسم : والله لأن يقطع لساني ، أحب إلي من أن أتكلم بما لاعلم لي به » (٢) .

فهذا العالم بين تلاميذه الكثر ، لم يأنف من أن يقول فيما لايعلمه : لا أحسنه ، وبهذا وعلى هذا تربت تلك الأجيال العظيمة .

والعالم لا يأنف من التعلم والتعليم ومذاكرة ما تعلمه ، أما المتعالم فهو يحرم نفسه من العلم بجهله ، ولننظر إلى العالم الفذ الخليل بن أحمد الفراهيدي في حكايته عن أيامه : « أيامي أربعة : يوم أخرج فألقى فيه من هو أعلم مني ، فأتعلم منه ، فذلك يوم فائدتي وغنيمتي ، ويوم أخرج فألقى فيه من أنا أعلم منه ، فذلك يوم أجري ، ويوم أخرج فألقى فيه من هو مثلي ، فأذاكره ، فذلك يوم درسي ، ويوم أخرج فألقى من هو دوني - وهو يرى أنه فوقي - فلا أكلمه ، وأجعله يوم راحتي » (٣) .

(١) نفس المرجع ، ١/١٤٨ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ٢ / ٥٣ .

(٣) نفس المرجع ، ١ / ١٣٣ .

الأصل الرابع من أصول أدب الخلاف
في التربية الإسلامية
الفهم الصحيح لنوع الخلاف ولطبيعة المخالف

ويندرج تحت هذا الأصل :

أ - فهم المقاصد العامة للإسلام .

ب - حتمية وقوع الخلاف .

جـ - الفهم الصحيح لنوع الخلاف والتنشئة على التفتح الذهني والتعددية الفكرية المنضبطة:

أ - فهم المقاصد العامة للإسلام :

إن الناظر المتدبر في آيات كتاب الله العزيز ، وسنة رسوله الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، ليجد الدعوة الأكيدة والمتكررة ، لالتزام الاتحاد والترابط ونبذ الخلاف والفرقة والنزاع ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ (١) .

وقوله عز من قائل :

﴿ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾(٢) .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٣).

---

(١) آل عمران / ١٠٣ .

(٢) آل عمران / ١٠٥ .

(٣) الأنعام / ١٥٣ .

وقوله عز وجل :

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ (١) .

وفي السنة النبوية المطهرة ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم : أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ، ويكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »(٢) .

وقال ﷺ : « لاتختلفوا فإن من قبلكم اختلفوا فهلكوا » (٣).

فهذه النصوص العظيمة ، تنص على مبدأ عظيم ، ومقصد كريم ، من مقاصد دين الله العزيز الحكيم ، ألا وهو مبدأ الألفة والاعتصام وتوحيد كلمة المسلمين على الحق الذي لايتغير ولايتبدل .

ومن المقاصد العظيمة ، التيسير على الناس ، فالله عز وجل يقول :

﴿ يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ﴾ (٤).

وكذلك جاء في الحديث «ماخير الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً » (٥) .

---

(١) الأنفال / ٤٦ .

(٢) مسلم : صحيح مسلم ، كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة السؤال ، رقم ١٧١٥ .

(٣) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الأنبياء رقم ٣٤٧٦ ، (فتح الباري ٦/٥٩٣) .

(٤) البقرة / ١٨٥ .

(٥) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب المناقب رقم ٣٥٦٠ ، (فتح الباري ٦/٦٥٤) ، بنحوه .

وكذلك الرحمة والشفقة على الناس ، والحرص على أن يتبعوا الحق ، وأن يتركوا ماهم عليه من الباطل ، بل إن هذا المبدأ هو مما أمتن الله به على عباده ، ببعثه لهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حيث قال تعالى :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (١).

فهذا النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، يحب الخير للمؤمنين ، ويكره ضرهم وما يشق عليهم ، ويحرص على هداية المؤمنين إلى طريق الحق .(٢)

وهذا النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو القدوة لجميع المسلمين قاسى من قومه ماقاسى ، وتحمل أشد مايتحمل بشر ، وكان مع ذلك مشفقاً على مخالفيه رحيماً بهم ، كما جاء في الحديث الذي تسأله - صلى الله عليه وسلم - عائشة ، أم المؤمنين ، رضي الله عنها بقولها : « هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وماردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال

---

(١) التوبة / ١٢٨ .

(٢) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٢ / ٣٠٠ .

لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم علي ، ثم قال : يا محمد ، فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لايشرك به شيئاً » (١) .

ب - حتمية وقوع الخلاف :

إن الخلاف واقع لامحالة - في عديد من الأمور والآراء - ولو كان من شيء ناجياً من الخلاف فيه ، لكان هذا الشيء هو ما يتعلق بالأمور الشرعية التي هي أهم ما يجب أن يهتم به المسلم ، فقد وقع الاختلاف بين الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم ، في عدة أمور ، وهم خير القرون وخير الناس ، فوقوع الخلاف عند غيرهم من باب أولى ، ووقوع الخلاف في غير أمور الشرع كذلك من باب أولى .

ولما كان الناس ، على أطباع متباينة ، وأذواق مختلفة ، وفروق كثيرة ، وكان كثير من الأمور التي يتداولونها بينهم ، تحتمل وجوهاً من الحق ، وتحتمل أن يكون الصواب في أكثر من طرف ، وأكثر من قول ، كان وجود الخلاف أمراً له مايبرره ، وكذلك دخول البغي والهوى ، وتحيزات النفس وحظوظها ، أدخل الخلاف إلى كثير من العلوم النظرية والعملية .

كل هذه الأسباب وغيرها ، حتمت - في رأي الباحث - وجود الخلاف ،

(١) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب بدء الخلق رقم ٣٢٣١ ، (فتح الباري ٦/٣٦٠) .

وأوجبت السعي إلى الفهم الأفضل لكيفية التعامل مع الخلاف - حسب نوعه ، وطبيعته - وهي مهمة يجب القيام بها ، لكي تكون النظرة إلى الخلاف معتدلة ، ومنضبطة بالضوابط الصحيحة ، فلا يعطى خلاف أكثر مما ينبغي إعطاؤه من اهتمام ، ولاتُميَّعُ قضية مختلفٌ فيها وهي تحتاج إلى كثير تحرير وتحقيق .

ومـا من عاقل ، إلا ويعلم أن الخلاف واقع ، شاء المرء أم أبى ، فالله عز وجل ، يقول :

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾(١) .

فحكمته جل وعلا ، اقتضت أنه خلقهم ليكون منهم الشقي والسعيد ، والمتفق والمختلف ، ومن هدى الله ومن حقت عليه الضلالة ، وليظهر ماكمن في الطباع البشرية من الخير والشر (٢) .

وقد حصل الخلاف بين أفضل الخلق ، فحصل بين أنبياء الله المكرمين ، عليهم صلوات من الله وسلام ، كما في قصة داود وسليمان ، وكذلك حصل بين الملائكة الكرام عليهم السلام ، كما في قصة الرجل التائب بعد ما قتل مئة نفس ، فمات في طريقة إلى قرية أهلها صالحون ، فبعث الله لهم ملكاً يحكم في خلافهم .

---

(١) هود / ١١٨ - ١١٩ .

(٢) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٢/٣٩٦ .

ولله در ابن الوزير حيث يقول في أبيات له ، يرى فيها السعة في حصول الخلاف ، وأنه لامفر من حصوله ، وأن رفعه بالكلية متعذر :

تسل عن الوفَاق فربنا قد ... حكى بين الملائكة الخصاما

كذا الخضر المكرم والوجيه ... المكلم إذ ألم به لماما

تكدر صفو جمعهما مراراً ... وعجل صاحب السر الصراما

ففارقه الكليم كليم قلب ... وقد ثنى على الخضر الملاما

فدل على اتساع الأمر فيما ... الكرام فيه خالفت الكراما[1]

جـ - الفهم الصحيح لطبيعة الخلاف والتنشئة على التفتح الذهني وقبول التعددية الفكرية المنضبطة :

إن فهم طبيعة الخلاف الفهم الصحيح ، وهل هذا الخلاف من قبيل الخلاف المقبول ، أو من قبيل الخلاف المذموم ؟ أمرٌ يساعد على تضييق رقعة الخلاف ، وتقريب وجهات النظر المختلفة .

وهذا الخلاف - الذي سبق ذكره في المبحث السابق - ليس القول فيه واحداً ، من ناحية قبوله ورده ، بل كل خلاف بحسبه .

فالخلاف الذي وقع من أفاضل الخلق ومن الصحابة ، لاشك أنه لاذم على

---

(١) القرضاوي : الصحوة الإسلامية ، ص ١١٢ .

أحد منهم فيه ، « فإن قال قائل : إن الصحابة قد اختلفوا وأفاضل الناس ، أفيلحقهم هذا الذم – وقد ذكر قبلاً الآيات الذامة للخلاف – ؟ قيل له ، وبالله التوفيق : كلا ، ما يلحق أولئك شيء من هذا ، لأن كل أمرئ منهم تحرى سبيل الله ، ووجهة الحق ، فالمخطيء منهم مأجور أجراً واحداً ، لنيته الجميلة في إرادة الخير ، وقد رفع عنهم الإثم في خطئهم ، لأنهم لم يتعمدوا ولاقصدوه ولااستهانوا بطلبه ، والمصيب منهم مأجور أجرين ، هكذا كل مسلم إلى يوم القيامة » (١) .

والمتأمل المتدبر في الأمور الخلافية – أياً كانت – يصل إلى نتيجة محصلتها : أن حدوث الخلاف – وإن كان من خلاف التضاد – لايحيله خلافاً مذموماً ، بل من الممكن أن يكون من نوع الخلاف المقبول ، إذا اتبع فيه المتخالفون هدى خير البرية ، صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام ، فقد « كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول في دعائه : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق ، حيث كان ، ومع من كان ، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه ، ورد الباطل مع من كان ، ولو كان مع من يحبه ويواليه فهو ممن هدي إلى ما اختلف فيه من الحق، فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلاً ، وأقومهم قيلا ، وأهل هذا المسلك ، إذا اختلفوا ،

---

(١) محمد بن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ، ٥ / ٦٤ – ٦٥ .

فاختلافهم رحمة وهدى ، يقر بعضهم بعضاً عليه ، ويواليه ويناصره ، وهو داخل في باب التعاون والتناظر ، الذي لا يستغنى عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم ، بالتناظر والتشاور وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب ، فيأتي كل منهم بما قدحه زناد فكره، وأدركته قوة بصيرته ، فإذا قوبل بين الآراء المختلفة ، والأقاويل المتباينة ، وعرضت على الحاكم الذي لايجور ، وهو كتاب الله وسنة رسوله ، فقلَّ أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال ، وماهو أقرب إليه ، والخطأ ، وما هو أقرب إليه ، ومراتب القرب والبعد متفاوته .

وهذا النوع من الاختلاف لايوجب معاداة ، ولاافتراقاً في الكلمة ، ولاتبديداً للشمل ، فإن الصحابة ، رضي الله عنهم ، اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع ، كالجد مع الإخوة ، وعتق أم الولد بموت سيدها ، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ، ..... ، وغيرها .

فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة ، ولاقطع بينه وبينه عصمة ، بل كان كل واحدٍ منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى مايقدر عليه ، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة ، من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغناً ، ولاينطوي له على معتبة ولاذم ، بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له ، ويشهد له بأنه خير منه ، وأعلم منه .

فهذا الاختلاف : أصحابه بين الأجرين والأجر ، وكل منهم مطيع بحسب نيته واجتهاده وتحريه للحق » [١] .

---

(١) ابن قيم الجوزية : الصواعق المرسلة ، ٢ / ٥١٦ – ٥١٨ .

وهكذا يجري الأمر مطرداً فيمن بعد الصحابة ، فالخلاف بين الناس واقع ولكن ما موقف الإنسان المسلم منه ؟

إن خلاف التنوع – وسبق تعريفه في الفصل الأول – لايقتضي المضادة، ولا يقتضي القول فيه منافاة القول الآخر ، بل كل طرف يكون محقاً ، وخلافهما قد يكون لفظياً ، وقد لايكون خلافاً – حقيقاً – أصلاً ، كمن يختار طريقاً معيناً لسفره إلى بلد ما ويختار غيره طريقاً آخر إلى نفس البلد ، فيكون « ذلك بمنزلة الطرق إلى مكة ، فكل أهل ناحية يحجون من طريقهم ، وليس اختيارهم لطريقهم لأنها أفضل ، بحيث يكون حجهم أفضل من حج غيرهم ، بل لأنه لابد من طريق يسلكونها ، فسلكوا هذه ، إما ليسرها عليهم ، وإما لغير ذلك ، وإن كان الجميع سواء » (١) .

فالخلاف المقبول ، بأنواعه ، هو الذي يصح فيه قول القائل :

واختلاف الرأي لا   يفسد للود قضية

بينما الخلاف المذموم ، لايمكن للإنسان المسلم قبوله ، أو الإكثار في بحثه ، بل يجب أن يخلص الخلاف من شوائب ذمه ، ليكون مقبولاً ، مسموحاً به ، غير مؤدٍ إلى فرقة ونزاع وشقاق .

فكثير من الاختلاف المذموم إنما أصله من خلاف التنوع ، حيث يكون فيه ، كل واحدٍ من المختلفين مصيباً في قوله ، ولكنه في الوقت ذاته وقع في الخطأ

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٢٤ / ٢٤٤ .

بتخطئته خصمه فيما هو عليه من صواب ، وإن اختلف هذا الصواب وهذا الخلاف السائغ كالاختلاف في القراءات ، واختلاف الحكم باختلاف الحال ، بينما نجد أن الصحابه رغم اختلافهم ، لم يتفرقوا ، فقد كان خلافهم فيما ساغ الخلاف فيه وأعملوا الرأي للوصول إلى الصواب ، فكانوا إخوة متحابين ، على ألفة عظيمة وقلب واحد ، حتى جاءت الأهواء المردية ، وظهرت الخلافات على أنها عداوات ، وتحزب الناس بذلك حتى صاروا فرقاً وشيعاً .

ومن هدي إلى سلوك سبيل الحق – ولم يعتد برأيه الاجتهادي الذي ليس له دليل قاطع يبتر الخلاف – يعلم أنه يوجد متسع للآراء المختلفة ، إذا كان لكل رأي مايسنده ويقويه .

وكان لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في فهم هذا المبدأ العظيم أوفر الحظ والنصيب ، فهذا أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين ، المحدث ، الملهم ، عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لقي رجلاً ، فقال له ، ماصنعت ؟ – في قضية له – ، فقال : قضى علي وزيد بكذا ، فقال : لو كنت أنا لقضيت بكذا ، قال : فما يمنعك والأمر إليك ؟ قال : لو كنت أردك إلى كتاب الله ، أو إلى سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لفعلت ، ولكني أردك إلى رأيي ، والرأي مشترك . فلم ينقض رضي الله عنه ، رأي علي وزيد رضي الله عنهما (١) .

ففي هذه المسألة الرائعة الفريدة ، نجد الفهم الصحيح لنوع الخلاف ،

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ٥٩/٢ .

والتفتح الذهني القابل لتعددية الآراء المنضبطة ، فلم يكن في المسألة ، نص حاكم مرجع يقطع الخلاف ، فكان هنالك مجال للاجتهاد وإعمال الرأي والفكر ، ولم يُجزْ عمر رضي الله عنه لنفسه أن يصادر الآراء المخالفة لرأيه ، لمجرد أنها خالفت رأيه ، بل صرح بأن الرأي مشترك بين الجميع ، فلا يُحْمدُ رأيٌ لأنه لفلان ، أو يذم لأنه لغيره ، وهنا يتضح التفتح الفكري الصائب ، والمنهجية الرائعة في قبول تعددية الآراء ما لم يقطعها دليل مرجعي متفق عليه بين أصحاب هذه الآراء المتعددة .

ولينظر الناظر – مرة أخرى – إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين طُعِن ، فاستشار أصحابه ، فقال : إني كنت قضيت في الجد قضاءً ، فإن شئتم أن تأخذوا به فافعلوا ، فقال له عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، : إن نتبع رأيك ، فإن رأيك رُشْد ، وإن نتبع رأي الشيخ قبلك – يعني أبا بكر رضي الله عنه – فنعم ، ذو الرأي كا ن (١) .

فهنا الحاكم القائد هو عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وهو مطعون ، فيكون التعاطف معه أولى من غيره ، ولكن الصحابي الجليل عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، أثنى على رأيه وذكر أنه رُشْد ، وأثنى على رأي أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وذكر أنه نعم ذو الرأي كان ، فصوَّب القولين ، ولم يجعل الأمر حرجاً في العمل بقول أحدهما .

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ٢ / ٥٨ .

ومن سلالة هؤلاء العظماء ، خرج الإمام العادل الفقيه ، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وورث عنهم هذه المنهجية الرائعة في التعامل مع الآراء المتعددة ، التي ليس فيها نص مرجعي حاسم لتعدد الآراء المختلفة فيقول : «ما أحب أن أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يختلفوا ، لأنه لو كان قولاً واحداً ، كان الناس في ضيق ، وإنهم أئمة يقتدي بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم ، كان في سعة» (١) .

وأخذ التابعون ، ومن بعدهم ، يستقون من ينابيع هذه التربية العظيمة التي لاتحجر على العقول ، بل تساعد على تفتحها ، وعدم الحجر على الآراء المختلفة إذا كان لها ما يسوغها .

ويشهد لذلك قول الإمام مالك بن أنس : لما حج أبو جعفر المنصور ، دعاني ، فدخلت عليه ، فحادثته ، وسألني فأجبته ، فقال : إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها – يعني الموطأ – فتنسخ نسخاً ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ، ولايتعدوه إلى غيره ، ويدعو ماسوى ذلك من هذا العلم المحدث ، فإني رأيت أصل العلم رواية المدينة وعلمهم ، قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، لاتفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ، ودانوا به، من اختلاف الناس وغيرهم ، وإن ردهم عما

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ٢ / ٥٩ – ٦٠ .

اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل أهل بلد منهم لأنفسهم (١) .

فلم يرض هذا الإمام الجهبذ أن تلغى الآراء الأخرى والإجتهادات المختلفة لصالح رأيه واجتهاده ، لأنه رأى فيها خلافاً سائغاً ، له أسبابه المقبوله وكان – أيضاً – يعلم أنه ليس معصوماً من الخطأ ، وليس كل رأيه صواباً لاخطأ فيه ، وليس كلامه هو الكلام الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل هو القائل – المقولة المشهورة : « ما منا إلا راد ومردود عليه ، إلا صاحب هذا القبر » (٢) .

ومن أبرز الأمثلة ، على عدم فهم طبيعة الخلاف ، مايراه المسلمون منذ زمن من تعصب مذهبي ذميم سدَّ منافذ التفكير الحر الناقد ، وحَجَّر على واسع من الآراء المتعددة الوجيهة ، والتي تحمل في طياتها الكثير الكثير من الصواب في المسائل التي تبحثها ، ولم يكن هذا التحجير على الآراء المتعددة حادث من قبل الأئمة ، ولكنه حدث بسبب جهالات بعض الأتباع الذين لم يفهموا ماجاء به الأئمة حق الفهم ، ولم يتدبروا أقوالهم في مسائل الخلاف ، فكل الأئمة الأربعة مجمعون على قبول الخلاف المنضبط ، وعدم الحجر على الآراء الأخرى – وهذا واضح جداً فيما قاله الإمام مالك قبل قليل – التي فيها إثراءً للعلم وتخصيباً للمادة العلمية .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٧٨/٨ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ٢ / ٩١ .

فهذا الفقيه الكبير ، أبو حنيفة النعمان ، يقول – في إحدى المسائل التي رأى فيها رأياً ، ولكنه لم يقطع قطعاً جازماً بصحته ، ولم ينكر على من جاء بغيره : « قولنا هذا رأي ، وهو أحسن ماقدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن من قولنا ، فهو أولى بالصواب منا » (١) .

وهذا الإمام الجبل ، محمد بن إدريس الشافعي ، يقول : قولنا صواب ، يحتمل الخطأ وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب (٢) . وهذا القول من هذا الإمام ، كان فيما لم يجزم بصحته تمام الجزم ، فعلم أن في الأمر فسحة وسعة للإجتهادات الأخرى ، فلم يحجر عليها بل يظهر من ثنايا حديثه – جلياً – أنه في تفتح فكري واستعداد لقبول القول الآخر ، الذي لم يكن جازماً – تمام الجزم – بخطئه وعدم صحته .

وإمام أهل السنة ، الإمام أحمد بن حنبل ، سئل عن شخص عالم ، كان يختلف معه في بعض الآراء ، فتكلم بإنصاف وفهم عن علم ذلك الرجل وقال : لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق ، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً (٣). فهنا حقق هذا الإمام مبدأ أن الخلاف لايفسد للود قضية ، ولايفسد للإنصاف قضية ، ولايفسد لاحترام العلم وأهل العلم أي قضية ، فهو أثنى على مخالفة بأنه لم يعبر الجسر أحد أعلم منه ، وثنّى بقوله :

---

(١) البغدادي : تاريخ بغداد ، ٣٥٢/١٣ .

(٢)

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٣٧١/١١ .

إن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً ، فأوجد له العذر في المخالفة بأنها من طبائع الناس ، وأنها لن تزول .

فالقول الصحيح ، والرأي الأكيد ، أن الأئمة والعلماء مجمعون على ماذكر ، من أهمية الفهم الصحيح للخلاف ، وقبول التعددية الفكرية المنضبطة ، وهذا في أمور الأحكام الشرعية - وهي أهم الأمور للإنسان المسلم - فكيف الأمر بمادون ذلك من أمور الحياة الدنيا وعلومها ؟ ولاشك أن الخطب فيها أقل خطورة ، وأليق بأن يكون المختلفين على نفس الروح التي تمتع بها هؤلاء العظماء .

نماذج من تراث المفكرين التربويين المسلمين

في فهم نوع الخلاف وتعددية الآراء المنضبطة

لقد ضرب علماء الإسلام – في كل فن – أروع مثال في فهم التعددية الفكرية المنضبطة وتعاملوا مع الخلاف في الآراء بحسب مايقتضيه .

فهذا الإمام أحمد بن حنبل ، عندما جاءه رجلٌ صنف كتاباً في الاختلاف ، قال له الإمام أحمد : « لاتسمه كتاب الاختلاف ، ولكن سمه كتاب السعة » (١) .

أي أن الأمر فيه توسعة ، والخلاف في تلك الأمور سائغ وارد ، وليس هنالك من حجر على رأي مستند إلى أصول قوية .

بل إن الذي لايعرف الخلاف في فنه الذي تخصص به ، لم يكن يعد من العلماء في ذلك الفن ، فقد قالوا : « من لم يعرف اختلاف القراء فليس بقارىء ، ومن لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه » (٢) .

وما كان اختلاف العلماء ، يفضي إلى العداوة والبغضاء والشحناء والفرقة ، بل كانت أقدارهم محفوظة ، وأعراضهم مصونة .

يقول العباس العنبري – أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل – : « كنت عند أحمد بن حنبل وجاء علي بن المديني راكباً على دابة فتناظرا في الشهادة ، وارتفعت أصواتهما ، حتى خفت أن يقع جفاء ، وكان أحمد يرى

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ٣٠/٧٩ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ٢ / ٤٦ .

الشـهـادة ، وعلي يأبى ويـدفع ، فلـمـا أراد الانصراف قـام أحـمـد وأخـذ بركابه »[١] .

فـهـذا الإمـام أحـمـد ، صـاحب القـدر العظيم ، وبين طلابه ، ومع رجل يخـالفه ، لم يحط من مكانة العـالم الآخر وقـدره ، بل أخذ بـركابه عندمـا أراد صعود دابته ، فالاختلاف لايفسد للود قضية ، ولايؤثر في النفوس سلبياً .

وأورد الإمـام الذهبي في السـير ، « عن أبي عبـيد القـاسم بن سـلام أنه انـصرف يوماً من الصـلاة ، فـمر بدار إسحـاق الموصلي ، فقـالوا لـه : يـا أبا عبيد ، صـاحب هذه الدار يقول : إن في كتـابك « غريب المصنف » ألف حـرف خطأ .

فقال أبو عبيد : كتاب فيه أكثر من مئة ألف ، يقع فيه ألف ، ليس بكثير ، ولعل إسحـاق عنده رواية ، وعندنا رواية فلـم يعلم فـخطأنا والـروايتـان صـواب ، ولعله أخطأ في حروف ، وأخطأنا في حروف ، فيبقى الخطأ يسيراً » [٢] .

فـمـا أحق هذا الكلام ، بل هـذه الدرر - والله - أن تكتب بماء الذهب ، ويعلم كل متعلم مفهوم ما قاله أبو عبيد .

أن أبا عبيد وضع ثلاثة أسس للخلاف حول كتابه الذي كان يدرسه في حلقات العلم :

---

(١) نفس المرجع ، ٢ / ١٠٧ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١٠ / ٥٠٢ .

الأول : أن الخلاف محتوم ، فذكر أن نسبة الخطأ قليلة إلى جانب الصواب ، وما جاوز القلتين لم يحمل الخبث .

الثاني : أن الخلاف قد يكون من باب خلاف التنوع ، ووقع الخلاف في أن المخالف لم يبلغه تنوع الصحة في القول ، فحكم بالخطأ خاطئاً .

الثالث : أن الخلاف ، ولو كان من باب خلاف التضاد ، فهو في شيء قليل يسير ، لايبطل شأن الكتاب ، ولاينزل من قدره ، فإن الله لم يجعل الكمال إلا لكتابه .

وبهذا الفهم وهذا التفتح الذهني ، نشطت العقول وتحررت من شراك التبعية المقيتة ، وأصبحت مبدعة لاتخاف أن تحارب من قبل غيرها .

الأصل الخامس من أصول أدب الخلاف

في التربية الإسلامية

اتباع أصول و آداب الحوار والمناظرة

أهمية الحوار والمناظرة لجميع العلوم :

إن الإلمام بأصول الحوار من الأمور المهمة ، التي لايكاد يستغنى عنها أحد ، فمعرفة علم الحوار والمناظرة لايستغنى عنه ناظر ، ولايتمشى بدونه كلام مناظر ، لأن به تتبين صحة الدليل من فساده تحريراً وتقريراً ، وتتضح الأسئلة الواردة من المردودة إجمالاً وتفصيلاً ، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة ، ولو خلي كل مدعٍ مع مايرومه على الوجه الذي يختار ، ولو مكن كل ممانع من ممانعة ما يسمعه متى شاء ، لأدى إلى الخبط وعدم الضبط ، وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل ، وبين المستقيم من السقيم ، فمن لم يحط بها علماً كان في مناظرته كحاطب ليل (١) .

ولايظن ظان أن الحوار والمناظرة ومايتعلق بها من علوم ، إنما هي مرتبطة بعلم معين من العلوم كالفقه أو مسائل الاعتقاد ، فهذا ظن غير صحيح ، فكل علم من العلوم وكل فن من الفنون يحتاج لعلم الحوار والبحث والمناظرة ، فهذا العلم « كالمنطق ، يخدم العلوم كلها ، لأن البحث والمناظرة عبارة عن النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب ، وإلزاماً للخصم ، فلتفاوت مراتب الطبائع والأذهان ، لايخلو علم من العلوم عن تصادم الآراء وتباين الأفكار ، وإدارة الكلام من الجانبين للجرح والتعديل والرد والقبول ، وإلا لكان مكابرة غير مسموعة ، فلابد من قانون يعرف مراتب البحث على وجه يتميز به المقبول عما هو المردود ، وتلك القوانين هي علم آداب البحث » (٢) .

---

(١) يحيى زمزمي : آداب الحوار على ضوء الكتاب والسنة ، ص ١٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩ .

فللحوار والمناظرة أصول وآداب ، بها يصح أن يكون الحوار بناءًا مفيداً مثمراً .

ويشترك الخلاف والحوار في أصول كثيرة ، ويتضح هذا إذا ماعلم أن كثيراً من الخلافات إنما تكون لفظيه حوارية ، ويزيد الحوار في الأصول التي يقوم عليها بالأصول اللفظية التي يتطلبها .

أولاً : الأصول المشتركة في أدب الخلاف وأدب الحوار كالتالي :

١ - الموضوعية والتجرد :

يقول الله عز وجل :

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (١) .

ففي هذه الآية ، كان الشرط في القيام للحوار هو الإخلاص لله ، والقيام الخالص له : **﴿ أن تقوموا لله ﴾** .

وهذا الشرط هو أصل كل عمل ، ولايقبل عمل إذا لم يكن المرء فيه مخلصاً لله عز وجل ، فالله ، سبحانه وتعالى ، هو أغنى الشركاء عن الشرك ، ولايقبل إلا ماكان خالصاً لوجهه الكريم .

والإخلاص « في البحث عن الحق ، والصدق في طلبه ، شرط أساسي للوصول إلى ذلك الحق ، وعندما يغيب الإخلاص ، ينعدم الانقياد إلى الحق ولو كان مثل فلق الصبح ، لأن من تعلق قصده بغير وجه ربه - عز وجل - ثقل عليها - أي على نفسه - الانقياد للحق وقصرت همته عن بلوغه والعمل به .

---

(١) سبأ / ٤٦ .

فوجب على من أراد معرفة وجه الحق في أي أمر ، أن يخلص قصده ونيته لله – عز وجل – وأن يتجرد لاتباع الحق عند ظهوره ، ولو على لسان مخالفه ، وأن يعلم أن الرجوع إلى الحق ، خير من التمادي في الباطل »(١).

فمن الواضح أنه يجب على من تصدى للحوار ، أن يراجع نيته قبل بدء الحوار ، وهل مقصده من الحوار ظهور الحق ، أم حب الظهور الشخصي والمعاندة وغير ذلك من مفسدات الحوار الجاد .

ويقتضي هذا الأصل أن يكون الإنسان متسع الصدر لتقبل الحق من محاوره مهما كانت درجته ، وأن ينصفه فيما يقول وفيما يورد من حجج ومقالات .

وأن يبتعد عن تشقيق الكلام ، وتزويق الألفاظ ، وأن يلتزم بتحرير النقاط المتحاور فيها ، لئلا يدور هو ومقابله في حلقة مفرغة لاتنتهي .

وفي الجملة ، فطالب الحق « كناشد ضالة ، لايفرق أن تظهر الضالة على يده ، أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً ، ويشكره إذا عرفه الخطأ ، وأظهر له الحق »(٢) .

٢ – مراعاة الفروق بين الناس :

وكما تقرر في مبحث مراعاة الفروق بين الناس ، من أن الناس ليسوا على درجة واحدة في العلم والفهم والنفسيات ، فمنهم العالم المتبحر في علمه ، ومنهم طويلب العلم الذي لم يحصل معشار ماحصله العالم ، ومن الناس من آتاه الله فهماً لمعاني الأمور وادراكاً ، ومنهم من تجد العناء الكبير في محاولة

---

(١) عبد العزيز الجليل : وقفات تربوية ، ص ٥٩ .

(٢) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ١ / ٥٧ .

إفهامه بدهيات الأشياء ، ومنهم صاحب النفسية الهادئة والأعصاب المنضبطة، ومنهم المتوتر المنفلت من عقال الحلم وتحكيم العقل .

فوجب على المحاور والمناظر مراعاة هذا الأمر أيما مراعاة ، ليتمكن من إقامة حجته ، وطرح دليله على الوجه السليم .

وقد أكد العلماء على « تجنب المناظرة مع من هو أهل المهابة العظيمة والإحترام العظيم ، كيلا تدهشه وتذهله جلالة خصمه عن القيام بحجته كما ينبغي ، ومنها ألا يحتسب خصمه حقيراً قليل الشأن ، لأن ذلك يؤديه إلى عدم الجد والاجتهاد في القيام بحجته ، فيكون ذلك سبباً لغلبة الخصم الضعيف له ، وغلبة القرن الحقير أشنع من غلبة القرن العظيم ، كما قال الشاعر :

ولــو أني بلـيت بـها شمي ... خـؤولته بنـو عـبد المدان

لـهان عـــلي ما ألقى ولكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلاني» (١)

٣ - العلم :

والعلم مطلب أساس في المحاورة والمناظرة في المتحاورين أو المتناظرين ، وهذا أمر بدهي ، فقد عاب الله على الكافرين أن حاجّوا بغير علم ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ (٢) .

وفي تفسير هذه الآية : « فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم ، فكيف يحاجون في هذه الحالة [ما ليس لهم به علم] ؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي : آداب البحث والمناظرة ، ٢ / ٧٦ .

(٢) آل عمران / ٦٦ .

عليه قولهم من البطلان ، يعلم فساد دعواهم .

وفي هذه الآية دليل على أنه لايحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لاعلم له به » (١) .

ومن نزل ساحة الحوار متسلحاً بأصوله وبالعلم ، لايكون عنده أدنى شك في صحة مايدعو إليه ، فيتمسك به بقوة ، ويكون يقينه بما يقول قوياً ، لاتهزه أي شبهة يلقيها محاوره ، وهذا ديدن الرسل الكرام ، عليهم أزكى الصلاة والسلام ، واتباعهم :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (٢) .

﴿ على بصيرة ﴾ تعني : على علم ويقين ثابت ، لايشوبهما شك ولاريب ولامرية (٣) .

وقد ورد في الحديث الشريف : « هلا سألوا إذا لم يعلموا . فإنما شفاء العي السؤال » (٤) فنبه الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، على أهمية العلم قبل أن ينطق الإنسان بجواب أو غيره .

٤ - الفهم الصحيح لطبيعة الموضوع المتحاور - المختلف - فيه

وهذا الأمر يساعد مساعدة كبيرة في إيجاد الأرضيات المشتركة والأسس المقبولة لدى الطرفين ، ليتم بناء الحوار بصورة صحيحة ، والخروج

---

(١) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ١ / ٢٥١ .

(٢) يوسف / ١٠٨ .

(٣) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٢ / ٤٤٠ .

(٤) أبو داود : سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ١٢٥ .

بنتيجة تعكس حقيقة مايتحاوران فيه ، فكم من المتفقين – في حقيقة الصورة ، وإن كان خلافهما خلافاً في الشكل الظاهري – طال بينهما النزاع واشتد ، ولم يؤد حوارهما وتناظرهما إلى ثمرة محمودة ، بينما لو فهما ماتحاورا وتناظرا فيه حق الفهم ، لأدى الحوار بينهما إلى النتيجة المرجوة لكلا الطرفين ولاريب .

وإذا كان موضوع الحوار أو المناظرة ، أمرًا له عدة أنواع – كما ورد في باب خلاف التنوع – فهذا يسهل على الطرفين الاتفاق ، والخروج بنتيجة مفادها أن كلاهما على حق ، وكلاهما مصيب ، فلا داعي لإطالة أمد الحوار ، ولاداعي للاستزادة من نقاش ، قد تكون نهايته أن يذم كل طرف ما عليه الطرف الآخر ، ويجهّله ويهضم حقه ، ويبخس ماعنده من علم صحيح .

وأما إذا كان موضوع الحوار من الأمور التي يكون قول كل طرف فيه منافاة لقول الطرف الآخر – كما ورد سابقاً في خلاف التضاد – فإذا عرض الطرف الذي معه الحق والصواب قوله وأدلته التي لاتحتمل اللبس أو الشك والواجبة الاتباع ، ووجد مقابله غير متقبل للصواب رغم تبينه ، فإنه من الأجدى أن ينهي الحوار ويقفل المناظرة بعد عرض حججه وإيضاحها على مقابله ، لئلا تضيع أوقات الناس في قيل وقال ، وهو عين مانهى عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم (١) .

ثانياً : الأصول التي ينفرد بها الحوار :

وأُفْرِدَت هذه الأصول ، نظراً لتعلقها بالنواحي اللفظية والقولية ، وفيها موضوعان رئيسان هما : قول التي هي أحسن ، البعد عن المراء .

---

(١) سبق تخريجه في ص ١١٨ .

١ - قول التي هي أحسن :

ومدار هذا الأصل على الآيات العديدة ، والأحاديث الكثيرة ، التي جاء فيها الأمر بقول التي هي أحسن ، واتباع الكلام الجميل ، والعبارات اللطيفة ، والأسلوب الحسن في الحديث والكلام والحوار ، ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ (١)

وهذه الآية ، فيها أمر بالكلام الحسن الجميل ، في كل الأمور « من قراءة ، وذكر ، وعلم ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ، ومنازلهم ، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين ، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما ، إن لم يمكن الجمع بينهما ، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح ، فإنه من ملك لسانه ، ملك جميع أمره .

وقوله **﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾** أي : يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم ، فدواء هذا : أن لايطيعوه في الأقوال غير الحسنة ، التي يدعوهم إليها ، وأن يلينوا فيما بينهم لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم ، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه » (٢).

ويقول عز من قائل عليماً :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ (٣).

وفي هذه الآية الكريمة « أمر بإحسان خاص له موقع كبير ، وهو :

---

(١) الإسراء / ٣ .

(٢) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ، ٣ / ١١٥ .

(٣) فصلت / ٣٤ .

الإحسان إلى من أساء إليك ، فقال [تعالى] : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن** ﴾ أي : فإذا أساء إليك مسيء من الخلق خصوصاً من له حق كبير عليك ، كالأقارب والأصحاب ونحوهم ، إساءة بالقول أو بالفعل ، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله ، وإن ظلمك فاعف عنه ، وإن تكلم فيك ، غائباً أو حاضراً ، فلا تقابله بل اعف عنه ، وعامله بالقول اللين » (١) .

وكم نبه نبي الرحمة والهدى ، صلى الله عليه وسلم ، على اختيار الكلام الطيب ، بل الكلمة واللفظة الحسنة عند ترادف المعنى ، ففي الحديث الصحيح، يقول صلى الله عليه وسلم : « لايقولن أحدكم : خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي » (٢) .

فكره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يستخدم أصحابه الكرام ، رضوان الله عليهم ، لفظة خبثت « وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه ، وإن كان بمعناه ، تعليماً للأدب في المنطق ، وإرشاداً إلى استعمال الحسن ، وهجر القبيح في الأقوال » (٣) .

والكلمة الطيبة في حد ذاتها صدقة وخير يفعله المسلم ، فقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « والكلمة الطيبة صدقة » (٤) .

والكلمة الطيبة مما تتقى بها النار ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمه طيبة » (٥) .

(١) السعدي : تيسير الكريم الرحمن ،٤ / ٣٩٨ / ٣٩٩ .

(٢) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الأدب رقم ٦١٧٩ .

(٣) ابن قيم الجوزية : الطرق الحكمية ، ٤٩ .

(٤) البخاري : الجامع الصحيح ، كتاب الجهاد رقم ٢٨٩١ .

(٥) نفس المرجع ، كتاب الأدب رقم ٦٠٢٣ .

وليس من اللازم للإنسان أن يتكلم في كل شيء وفي كل وقت ، بل يجب على الإنسان أن ينظر فيما يقول ، وهل مايود أن ينطق به خيراً أم غير ذلك ؟ فإن كان خيراً قاله ، وإن كان غيراً سأل الله العافية وسكت ، وقد جاء في الحديث الصحيح عن المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، قوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت » [١] « فرب حرب وقودها جثث وهام ، أهاجها القبيح من الكلام » [٢] .

ومن رزق حسن اختيار الألفاظ ، فهو قد أوتي حكمة وخيراً ، وتكون له لفتات جميلة في حسن اختيار اللفظ والكلام المنتقى ، ومن هذا ماورد عن عمر ابن الخطاب ، رضي الله عنه أنه خرج يعس المدينة بالليل ، فرأى ناراً موقدة في خباء فوقف وقال : يا أهل الضوء ، وكره أن يقول : يا أهل النار [٣] .

ولما سئل العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو أكبر مني ، وأنا ولدت قبله[٤] .

٢ - تجنب المراء :

وهذا الأصل مهم للغاية في الحوار والمناظرة ، فالحوار إذا تحول إلى جدل عقيم لاينبت ثمرة طيبة ، يكون قفله وإيقافه خيراً من استمراره .

فعن أبي أمامة ، رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب ، وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » [٥] .

(١) المرجع السابق ، كتاب الأدب رقم ٦٠١٨ .

(٢) ابن قيم الجوزية : الطرق الحكمية ، ص ٤٩ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٨ .

(٥) نفس المرجع ،ص ٤٨ .

فهذا الأجر العظيم لمن ترك المراء وهو محق ، فما الأمر في من جادل وماري وكان الحق في جانب وهو في جانب آخر ؟ .

إن صاحب الحق في الحوار ، يكتفي بأن يعرض الأدلة والحقائق التي تكفي لاقناع من لديه إنصاف واستعداد لتقبل الحق ، وبعد ذلك لايكون مطالباً في أن يلوي عنق محاوره ليقبل هذا الحق بالقوة .

والمحاور العاقل يحذر من « الجدل والمراء ، فإن قال قائل : فما يصنع في علم قد أشكل عليه ؟ .

قيل له : إذا كان كذلك ، وأراد أن يستنبط علم ما أشكل عليه ،قصد إلى عالم ممن يعلم أنه يريد بعلمه الله ، ممن يرتضي علمه وفهمه وعقله ، فذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة ، وأعلمه أن مناظرتي إياك مناظرة من يطلب الحق ، وليست مناظرة مغالب ، ثم ألزم نفسه الإنصاف له في مناظرته ، وذلك أنه واجب عليه أن يحب صواب مناظره ويكره خطأه كما يحب ذلك لنفسه ، ويكره له مايكره لنفسه ، ويعلمه أيضاً : إن كان مرادك في مناظرتي أن أخطيء الحق وتكون أنت المصيب ، فإن هذا حرام علينا فعله لأن هذا خلق لايرضاه – الله – منا ، وواجب علينا أن نتوب من هذا » (١) .

وإن علم المحاور أن محاوره لم يحاوره إلا للجدل والمماراة ، كان عليه أن يترك مناظرته ، ويذكر الإمام الآجري في هذا الصدد أن المناظر « إذا عارضه في مجلس العلم والمناظرة بعض من يعلم أنه يريد مناظرته للجدل والمراء والمغالبة ، لم يسعه مناظرته ، لأنه قد علم أنه إنما يريد أن يدفع قوله ، وينصر مذهبه ، ولو أتاه بكل حجة – مثلها – يجب أن يقبلها ، لم يقبل ذلك ونصر

(١) الأجري : أخلاق العلماء ، ص ٦٤ .

قوله ، ومن كان هذا مراده لم تؤمن فتنته ، ولم تحمد عواقبه .

ويقال لمن مراده في المناظرة المغالبة والجدل : أخبرني إذا كنت أنا حجازياً وأنت عراقياً ، وبيننا مسألة ، على مذهبي أقول : إنها حلال ، وعلى مذهبك أنها حرام ، فسألتني المناظرة لك عليها ، وليس مرادك في مناظرتك الرجوع عن قولك ، والحق عندك أن أقول فيها قولك ، وكان عندي أنا أن أقول : وليس مرادي في مناظرتي الرجوع عما هو عندي ، وإنما مرادي أن أرد قولك ، ومرادك أن ترد قولي ، فلا وجه لمناظرتنا ، فالأحسن بنا السكوت » (١).

وهكذا تجد الأمر مطرداً عند أهل العلم ، في منع الجدل والمماراة ، لثبوت عدم الفائدة من الحوار والمناظرة في هذه الحالة ، بعكس ماإذا كان الحوار حواراً هادئاً عقلانياً .

ثالثاً : آداب الحوار :

إن آداب الحوار من الموضوعات الشيقة التي يمكن بسط المجلدات الطوال في عرضها وعرض نماذجها الرائعة من التراث الإسلامي العظيم ، وقد أفردت هذه الآداب ببحث قيم ، كان رسالة ماجستير من جامعة أم القرى مقدمة من الباحث يحيى بن محمد حسن زمزمي ، وتجاوزت صفحات هذا البحث خمسمئة صفحة ، وكان عمله قيماً للغاية فيما يتعلق بآداب الحوار.

وقد قسم آداب الحوار إلى ثلاثة أقسام :

١ - آداب نفسية .

---

(١) الآجري : أخلاق العلماء ، ص ٦٥ - ٦٦ .

٢ – آداب علمية .

٣ – آداب لفظية .

وهذا التقسيم جيد ويفي بآداب الحوار بشكل كامل تقريباً ، وفيما يلي عرض موجز لهذه الأقسام :

أولاً – الآداب النفسية :

وفيها عدة نقاط :

أ – **النزول لساحة الحوار مع الاستعداد لتقبل الحق** ، وأن الإنسان متى ما تخلى عن الأفكار المسبقة التي يحملها ، كان الحوار مثمراً ، وإلا لكان الحوار جدلاً لاخير فيه ، ولاثمرة ترتجى من ورائه ، ولايكون هذا إلا لمن سمحت نفسه ، وسما فكره ، هذا بالنسبة للأمور التي لم يقطع الإنسان فيها برأيه ، أما ما كان مقتنعاً تمام الاقتناع بصحة رأيه بناءً على أدلة واضحة يجب اتباعها وبراهين ثابتة لايمكن مخالفتها ، فيجب عليه والحالة هذه أن يلزم قوله ولايفارقه قيد أنملة ، بل يجب على مناظره أن يترك قوله لاتباع الحق الذي جاء به صاحبه .

ب – **اختيار الظرف المناسب** ، فلابد للمحاور والمناظر من النظر في الأجواء المحيطة بالحوار ، سواء من الناحية المكانية والناحية الزمانية ، والناحية الإنسانية ، فاختيار المكان المناسب سواء كان قاعة درس ، أو كان منتدى عاماً ، أو غير ذلك له أثر إذا كان المكان مريحاً أم غير ذلك ، متسعاً وفيه تهوية جيدة أو مكتوماً ضيقاً ، ومن ناحية الوقت فقد يكون الوقت وقت راحة وليس وقت شغل ، أو وقتاً مبكراً ، أو متأخراً جداً ، ومن ناحية ظروف

الإنسان فكما أن القاضي لايقضي وهو غضبان ، فلذلك المحاور يجب أن يكون لائقاً ذهنياً وجسمياً مستعداً لحوار قد يطول في سبيل الوصول إلى الحق الذي ينشده كل طرف ، فيكون مستعداً لإبداء حجته ومايريد قوله .

جـ - **الصبر وحسن الخلق** ، إن التحلي بالأخلاق الحسنة ، أمر يسير على من يسره الله للتحلي بها ، فيجب على الإنسان أن يسعى جهده للتحلي بالأخلاق الحسنة ، ومنها الحلم والصبر ، فلو كان المحاور قليل الصبر نافذ الحلم ، لم يستطع أن يتحمل سماع كلام غير الكلام الذي يقتنع - هو - به ، فتراه يغضب ويسخط ويبدأ في تحقير القول وصاحب القول بغير تحقيق ولاتدقيق ولاتبين ، أما من رزقه الله محاسن الاخلاق فتجده هيناً لين الجانب ، يسير مع محاوره برفق سعياً إلى هدايته للقول الصحيح .

د - **حسن الاستماع** : وهذه السمة من سمات المحاور الحصيف ، وهذا مما يترك أحسن الأثر في نفس الطرف الآخر ، حيث يطمئن إلى أن قوله مسموع ، ورأيه مفهوم وأنه ليس نافخاً في رماد ، وكما يقول ديل كارنيجي في كتابه « كيف تكسب الاصدقاء وتؤثر في الناس » : « إذا كنت تريد أن ينفض الناس من حولك ، ويسخروا منك عندما توليهم ظهرك ، فهاك الوصفة : لاتعط أحداً فرصة الحديث ! تكلم بغير انقطاع ! وإذا خطرت لك فكرة بينما غيرك يتحدث ، فلا تنتظر حتى يتم حديثه ، فهو ليس ذكياً مثلك ، فلماذا تضيع وقتك في الاستماع إلى حديثه السخيف ؟ اقتحم عليه الحديث ، واعترض في منتصف كلامه » (١) ، وحسن الاستماع دائماً من وصايا العلماء للمتعلمين ، ومن وصايا الآباء والمربين لأبنائهم ، بل يحرصون على التأدب

---

(١) ديل كارنيجي : كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس ، ص ٤٧ .

بحسن الاستماع كما يحرصون على التأدب بحسن الحديث ، ومن ذلك وصية الحسن بن علي رضي الله عنهما ، لابنه حيث يقول : « يابني .. إذا جالست العلماء ، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الكلام ، ولاتقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك » (١) .

وهناك غيرها من الآداب النفسية الفرعية والتي يمكن استنباطها من الأصلين العظيمين الموضوعية والتجرد ومراعاة الفروق بين الناس وغيرها .

ثانياً : الآداب العلمية :

وغالب الآداب العلمية تكون متعلقة بالأصل المهم الذي سبق ذكره وهو العلم . والأصل المتعلق بفهم طبيعة الموضوع ، ومن هذه الآداب ما يلي :

أ - **البدء بأصول الأمور ثم الانتقال إلى الفروع** ، فإذا كان الأصل فاسداً لم يكن من اللائق أن تتم مناقشة الفرع والمناظرة فيه ، وهو مبني على أصل غير قوي وليس بقادر على حمل هذا الفرع ، فلايمكن أن تكون هنالك مناظرة لفهم تحريم الربا - فهماً كاملاً - مع متناظر لايؤمن أصلاً بالنظام الاقتصادي الإسلامي، فمسألة الربا مسألة فرعية في النظام الاقتصادي الذي يمثل الأصل ، فما دام أنه لا اتفاق على الأصل فلن يحصل اتفاق على الفرع .

ب - **البدء بالنقاط المشتركة** ، فمتى وجد الطرفان أنه توجد عدة نقاط مشتركة تجمع بينهما ، يمكنهما جعل هذه النقاط المشتركة قاعدة صلبة للانطلاق في ميدان الحوار والمناظرة ، ويتكون لديهما الانطباع بأنه يمكنهما الاتفاق في نهاية الحوار لأنهما اجتمعا في الأساس فسيجتمعان في نهاية

---

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، أصول الحوار ، ص ٣٨ .

الأمر ، ويفيد هذا في تحديد النقاط المتنازع فيها وبسط الحديث بالتدريج في باقي النقاط المختلف فيها .

جـ - **الأمانة العلمية** ، وهذا أدب جد مهم ، فمتى تحلى المحاور والمناظر بهذا الأدب ، أعطى قوله المزيد من القوة العلمية ، مما يجعل قوله مدعماً بالدلائل الصريحة التي تعطيه بالغ الحجة على مناظره ، وفقدان الأمانة العلمية أمر بالغ الخطورة في مسائل الحوار والمناظره بله جميع مسائل العلم ، فكيف يمكن للمحاور أن يسلك طريق الحوار الصحيح وهو يعرف - أو على الأقل يشك - أن خصمه يأتي بما ليس له ، ويدعي ماليس عنده من المسائل والقضايا ، ومع حساب الثقة لابد من التثبت ، والتثبت والتبين أمر جاء به الأمر الإلهي في الآية الكريمة في قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ (١) .

د - **التفريق بين الفكرة وقائلها** ، وإن ظهر أن هذا الأدب متعلق بالإنصاف ، ولكنه متعلق أيضاً - وبقوة - بالاهتمام العلمي للمحاور ، فمتى كان هدف المحاور أو المناظر الوصول إلى الحق - أنى تسنى ذلك - لم يأل جهداً في الاستزادة العلمية من مناظره ، ويعلم أن هذا مما يزيد المحصلة المعرفية للجميع ، ولن يضره ذلك ، أو أن هذا سيدعو إلى وصمه بالجهل ، بل هذا أدعى لأن يكون حقيقاً بأن يقال له : عالم .

هـ - **التحضير العلمي لموضوع الحوار والمناظرة** ، وهذا ظاهر غاية الظهور ، فالمحاور - مهما كانت درجته : عالماً أو متعلماً - وإن كان يعلم عن

---

(١) الحجرات / ٦ .

الموضوع بصورة جيدة ، لابد له من المراجعة لما يعلم ، والتحضير وجمع الذهن وتجميع الخاطرات عن الموضوع ، وهذا أدعى لأن تكون حجته ومايورد من معلومات قوية وموثقة ومقنعة للطرف المقابل .

ثالثاً - الآداب اللفظية :

ومجمل هذه الآداب اللفظية مندرجة تحت الأصلين المتعلقين بقول التي هي أحسن والبعد عن المراء في أغلب الأحوال ، ومنها ما يلي :

أ - **انتقاء أطايب الكلام** ، فالكلام الطيب الجميل يدخل القلوب بلا استئذان ، والقول اللين مفتاح للقلوب الغليظة الجافة ، واستخدام لين القول ولو كان مع أعتى العتاة قد يكون ذا موقع حسن ، قال تعالى :

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (١) .

ولو تتبع متتبع كيف كان حال أغلب السلف مع مناظريهم ، لوجد الكلام المنتقى ، واللفظ المجتبى ، وما يفعل في نفوس الناس فعله .

ب - **احترام الوقت** ، فلا يصلح أن يستأثر المحاور - أياً كان - بأغلب الوقت ، ويحرم غيره من فرصة التحدث وطرح حجته ، ولو كان كل ما يقوله هذا المستأثر صحيحاً سليماً لكان فعله ذلك إملالاً للآخرين ، فالمستمع في أغلب أحواله لايتمكن من الاستماع بتركيز وانتباه أكثر من خمس عشرة دقيقة ، ويصاب بعدها بالشرود والتعب (٢) .

---

(١) النازعات / ٤٣ - ٤٤ .

(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامي : أصول الحوار ، ص ٣٧ .

جـ - **إظهار احترام الطرف الآخر** ، إذا كان ممن ينبغي احترامهم كالمعلمين ونحوهم ، ومن إظهار احترامهم مناداتهم بألقابهم وكناهم ، والتأدب بحسن الاستماع لهم ، وعدم مقاطعتهم القول - وإن كان هذا مطلوباً مع الكل - والتأدب في السؤال من غير قصد التعنت في السؤالات ، وكذلك الثناء على المحاور بما فيه من خصال حميدة يحسن أن يثنى عليه بها .

د - **عدم رفع الصوت** - فليس قوي الحجة هو عالي الصوت ، بل قوي الحجة هو من ملك الدليل وأظهر المحجة ، وكذلك البعد عن محاذير الأقوال عامة كالكذب والغيبة والتشدق في الكلام والتقعر فيه ، وتخطئة الآخرين بشكل يسيء لهم وهم لايستحقون أن يشهر بهم بين الناس .

من نماذج الحوار والمناظرة

لقد ساق الباحث يحى زمزمي في أطروحته العلمية ، نماذج رائعة لأدب الحوار ، وكيف طبقه سلفنا الصالح مقتدين في ذلك برسل الله ، صلوات الله عليهم وسلامه .

وسيتم الاقتصار على نموذج واحد فريد ، كان عبارة عن رسالة من الشيخ حمد بن عتيق إلى الشيخ صديق خان القنوجي ، فيها ملاحظات للشيخ ابن عتيق على أحد كتب الشيخ صديق خان ، ولولا طول الرسالة لتم سردها كاملة هنا ، ولكن سيتم الاقتصار على أجزاء منها .

وقد بدأ ابن عتيق رسالته بالثناء الوافر الذي يستأهله صديق خان فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من حمد بن عتيق ، إلى الإمام المعظم ، والشريف المقدم ، المسمى محمد ، الملقب صديق ، زاده الله من التحقيق ، وأجاره في مآله من عذاب الحريق .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فالموجب للكتاب إبلاغ السلام ، والتحفي والإكرام ، شيد الله بك قواعد الإسلام ، ونشر بك السنن والأحكام .

أعلم وفقك الله ، أنه كان يبلغنا أخبار سارة ، بظهور أخ صادق ، ذي فهم راسخ ، وطريقة مستقيمة ، يقال له : صديق ، فنفرح بذلك ونسر لغرابة الزمان ، وقلة الإخوان ، وكثرة أهل البدع والأغلال ، .... ، وصل إلينا

التفسير بكماله ، فرأينا أمراً عجيباً ، ما كنا نظن أن الزمان يسمح بمثله وماقرب منه ، .... ، فلما نظرنا في ذلك التفسير ، تبين لنا حسن قصد منشيه ، وسلامة عقيدته ، وتبعده من تعمد مذهب غير ماعليه السلف الكرام » وبعد أثنى ابن عتيق على صديق خان وعلى كتابه الذي لاحظ عليه بعض الملاحظات ، قال : « أن هذا التفسير العظيم ، وصل إلينا في شعبان سنة سبع وتسعين ومئتين وألف ١٢٩٧هـجرية ، فنظرت فيه ، وفي هذا الشهر وفي شوال ، فتجهز الناس للحج ، ولم أتمكن إلا من بعضه ، ومع ذلك وقفت فيه على مواضع تحتاج إلى تحقيق ، وظننت أن لذلك سببين :

أحدهما : أنه لم يحصل منكم إمعان نظر في هذا الكتاب بعد إتمامه والغالب على من صنف الكتب ، كثرة ترداده وإبقائه في يده سنين ، يبديه ويعيده ، ويمحو ويثبت ، ويبدل العبارات ، حتى يغلب على ظنه الصحة غالباً ، ولعل الأصحاب عاجلوك بتلقيه قبل ذلك .

والثاني : أن ظاهر الصنيع ، أنك أحسنت الظن ببعض المتكلمة ، وأخذت من عباراتهم ، بعضاً بلفظه ، وبعضاً بمعناه ، فدخل عليك شيء من ذلك ، ولم تمعن النظر فيها ، ولهم عبارات مزخرفة فيها الداء العضال ، ومادخل عليك من ذلك ، فنقول إن شاء الله بحسن القصد ، واعتماد الحق ، وتحري الصدق والعدل » .

وهو – ابن عتيق – بهذا يوجد العذر ابتداءً للقنوجي ، ثم سرد الشيخ ابن عتيق ملاحظاته تفصيلاً – وذلك بعد أن مهد بكلامه لمخالفه قبول ما يأتي به –

ثم ذكر المراجع العلمية ، والأصول التي يرجع إليها في تلك الملاحظات ، ثم ختم رسالته بطلب بعض كتب الشيخ صديق والتعريف عن أحواله ، وأن لاينساه من صالح دعائه كما هو له مبذول (١) .

وهذه رسالة نفيسة ، أختيرت ألفاظها بعناية ، ودرست معانيها برعاية ، ثم فيها اتباع أصول وآداب الحوار ، فماذا كان نتيجتها ؟ ! .

كان نتيجتها أن الشيخ صديق خان ، قام بتأليف كتاب « قطف الثمر شرح عقيدة أهل الأثر » جاء فيه بالأدلة المؤيدة لصحة ماذهب إليه الشيخ حمد بن عتيق في رسالته ونصيحته .

وليس أدل من هذا على أن اتباع أصول وآداب الحوار هو مما يؤدي إلى نزع فتيل الفرقة ، ورفع الخلاف ودفعه .

---

(١) هذه الرسالة موجودة في مقدمة كتاب « قطف الثمر شرح عقيدة أهل الأثرو « لصديق خان ، ص ١٣ - ٢٠ ، وهي ملحقه في آخر هذا البحث .

الخاتمة

لقد اشتمل هذا البحث على تعريف الخلاف وأنواعه كمدخل لدراسة هذا الموضوع الحيوي ، الذي يمس الجوانب التربوية والمسلكية لكل فرد من أفراد المجتمع ، وخاصة من له التصاق بالعملية التربوية .

وبعد استقراء وإعادة نظر عميقة في الأسباب التي تؤدي للخلاف ، تم إجمال الأسباب المؤدية للخلاف في خمسة أسباب :

١ - الهوى والتحيز .

٢ - الفروق الفردية .

٣ - الجهل وضعف المحصلة العلمية .

٤ - الفهم الخاطيء لنوع الخلاف .

٥ - ترك اتباع أصول وآداب الحوار .

وبدراسة وتحليل مكونات هذه الأسباب ، تم الوصول إلى الأصول التي يقوم عليها أدب الخلاف في التربية الإسلامية .

وهذه الأصول كالتالي :

١ - الموضوعية والتجرد :

وفي هذا الأصل كانت أربعة مطالب ، هي : أهمية الأخلاص في كل الأمور ، ومنها أمور الخلاف ، وكذلك قبول الحق ممن جاء به ، وهذا الأمر مهم جداً ، نظراً لأن الحكمة ضالة طالب الحق ، ، وكذلك إنصاف المخالف مما يجعل القلوب أكثر صفاء ، وأقل ضغينة ، ويأتي المطلب الرابع المتمثل في

تحرير موضع الخلاف ، ليعطي الخلاف حجمه الحقيقي فيكون النقاش موضوعياً .

٢ - مراعاة الفروق بين الناس :

وفي هذا الأصل ، تم التأكيد على ما تقدم من أن الفروق بين الناس هي سنة من السنن الكونية في الخلق ، وأنها - أيضاً - ضرورة واقعية ، ليستقيم العيش ، وتحصل المصالح ، وأوضح البحث أن تخصيص البعض بعلم - متى كان مؤهلاً لتلقيه - دون غيرهم هو مما يمنع حصول الخلاف ، وكذا التدرج في عرض الموضوعات والحقائق يمنع حصول الخلاف .

٣ - العلم واحترام التخصص العلمي :

وتم في هذا الأصل التأكيد على أهمية العلم ومنزلة أهله ، وأن العلم يقوم بدور كبير في سد الخلاف ، وأن المرجعية العلمية - في كل التخصصات - مطلوبة لحل الخلافات ، وقد أكد البحث على أهمية البعد عن التعالم ، بل يقف كل إنسان عند حدود ما يعلم ويسكت عما لايعلم ويتركه لأهل العلم به ، وأن يحترم التخصصات العلمية المختلفة ويعرف قدرها ورسالتها مما ينتج التكاملية بين التخصصات المتباينة .

٤ - الفهم الصحيح لنوع الخلاف :

وانتهى البحث في هذا الأصل إلى أن الفهم الصحيح لنوع الخلاف هو مما يدرأ الخلاف ، أو يحجمه على أقل حال ، وأن الخلاف المقبول يجب أن لايكون ذريعة للفرقة والنزاع والتشتت ، وبما أن الخلاف واقع لامحالة ، وجب أن يكون هم المرء هو اتخاذ الموقف الصحيح من الخلاف فيسعى في إزالة

خلاف التضاد ، ويسعى إلى توضيح أهمية قبول خلاف التنوع ، وأن يكون لدى الإنسان التفتح الذهني الذي يجعله متقبلاً لتعددية الآراء المنضبطة .

٥ - اتباع أصول وآداب الحوار :

وخلص البحث إلى أن الأصول الأربعة السابقة المتعلقة بالخلاف ، هي نفسها المتعلقة بالحوار ، ويزيد الحوار عن الخلاف بأصلين متعلقين بالنواحي اللفظية هما : قول التي هي أحسن وتجنب المراء .

أما الآداب الحوارية فكانت مقسمة كالتالي :

- آداب نفسية .
- آداب علمية .
- آداب لفظية .

ويندرج تحتها العديد من الآداب الفرعية ، واقتصر البحث على أهم هذه الآداب من وجهة نظر الباحث .

الملحق

بسم الله الرحمن الرحيم

من حمد بن عتيق ، إلى الإمام المعظم ، والشريف المقدم ، المسمى محمد، الملقب صديق ، زاده الله من التحقيق ، وأجاره في مآله من عذاب الحريق .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فالموجب للكتاب ، إبلاغ السلام ، والتحفي والإكرام ، شيّد الله بك قواعد الإسلام ، ونشر بك السنن والأحكام .

اعلم وفقك الله ، أنه كان يبلغنا أخبار سارة بظهور أخ صادق ، ذي فهم راسخ وطريقة مستقيمة ، يقال له صديق ، فنفرح بذلك ونسر ، لغرابة الزمان وقلة الإخوان ، وكثرة أهل البدع والاغلال .

ثم وصل إلينا كتاب « الحطة » و« تحرير الأحاديث » في تلك الفصول ، فازددنا فرحاً وحمدنا لربنا العظيم ، لكون ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، وكان لي ابن يتشبث بالعلم ، ويحب الطلب ، فجعل يتوق إلى اللحوق بكم ، والتخرج عليكم ، والالتقاط من جواهركم ، لذهاب العلم في أقطارنا ، وعموم الجهل ، وغلبة الأهواء .

فبينما نحن كذلك ، إذ وصل إلينا التفسير بكماله ، فرأينا أمرا عجيباً ، ما كنا نظن أن الزمان يسمح بمثله وما قرب منه ، لما من التفاسير التي تصل إلينا من التحريف ، والخروج عن طريقة الاستقامة ، وحمل كلام الله على غير مراد الله ، وركوب التفاسير في حمله على المذاهب الباطلة ، وجعلت السنة

كذلك ، فلما نظرنا في ذلك التفسير ، تبين لنا حسن قصد منشيه ، وسلامة عقيدته ، وتبعده من تعمد مذهب غير ما عليه السلف الكرام ، فعلمنا أن ذلك من قبيل قوله ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ (١) فالحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً طيباً كما يحب ربنا ويرضى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فزاد اشتياق التائق ، وتضاعفت رغبته ، ولكن العوائق كثيرة، والمثبطات مضاعفة ، والله على كل شيء قدير ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس ، فمن العوائق : تباعد الديار ، وطول المسافات ، فإن مقرنا في فلج اليمامة ، ومنها خطر الطريق ، وكثرة القطاع ، وتسلط الحرامية، في نهب الأموال واستباحة الدماء وإخافة السبيل ، ومنها ما في الطريق من أهل البدع والضلال ، بل وأهل الشرك من رافضي وجهمي إلى معتزلي ونحوهم وكلهم أعداء قاتلهم الله ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

ومع ذلك فنحن نرجو أن يبعث الله لهذا الدين من ينصره ، وأن يجعلنا من أهله ، وأن يسهل الطريق ، ويرفع الموانع ، ونسأله أن يمن بذلك ، فهو القادر عليه .

ولما رأينا ما منَّ الله به عليكم من التحقيق ، وسعة الاطلاع ، وعرفنا تمكنكم من الآلات ، وكانت نونية ابن القيم ، المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقه الناجية ، بين أيدينا ، ولنا بها عناية ، ولكن أفهامنا قاصرة ، وبضاعتنا مزجاة من أبواب العلم جملة ، وفيها مواضع محتاجة إلى البيان ، ولم يبلغنا أن أحداً تصدى لشرحها ، غلب على الظن أنك تقدر على ذلك ،

(١) الكهف / ٦٥ .

فافعل ذلك يكن من مكاسب الأجور ، وهي واصلة إليك إن شاءالله ، فاجعل قراها شرحها وبيان معناها وأصلح في النية ذلك تكن حرباً لجميع أهل البدع، فإنها لم تبق طائفة منهم إلا ردت عليها ، فهذان مقصدان من بعثها إليك .

أحدهما : شرحها .

والثاني : الاستعانة بها على الرد على أهل البدع ، لأن مثلك يحتاج إلى ذلك ، لكونك في زمان الغرابة وبلاد الغربة .

فإن كنت حريصاً على ذلك ، فعليك بكتاب العقل والنقل ، والتسعينية لشيخ الإسلام بن تيمية ، وكتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، والجيوش الإسلامية لابن القيم ، ونحوهن من كتبهما ، فإن فيها الهدى والشفاء .

ولنا مقصد رابع مهم : وهو أن هذا التفسير العظيم ، وصل إلينا في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ١٢٩٧ هجرية ، فنظرت فيه وفي هذا الشهر وفي شوال ، فتجهز الناس للحج ، ولم أتمكن إلا من بعضه ، ومع ذلك وقفت فيه على مواضع تحتاج إلى تحقيق ، وظننت أن لذلك سببين :

أحدهما : أنه لم يحصل منكم إمعان نظر في هذا الكتاب بعد إتمامه ، والغالب على من صنف الكتب كثرة ترداده وإبقائه في يده سنين ، يبديه ويعيده، ويمحو ويثبت ، ويبدل العبارات ، حتى يغلب على ظنه الصحة غالباً، ولعل الأصحاب عاجلوك بتلقيه قبل ذلك .

والثاني : أن ظاهر الصنيع أنك أحسنت الظن ببعض المتكلمة ، وأخذت

من عباراتهم ، بعضاً بلفظه ، وبعضاً بمعناه ، فدخل عليك شيء من ذلك ، ولم تمعن النظر فيها ، ولهم عبارات مزخرفة فيها الداء العضال .

وما دخل عليك من ذلك ، فنقول : إن شاء الله بحسن القصد ، واعتماد الحق ، وتحري الصدق والعدل ، وهو قليل بالنسبة إلى ما وقع فيه كثير ممن صنف في التفسير وغيره ، وإذا نظر السني المصنف في كثير من التفاسير وشرح الحديث ، وجد قلته وماهو أكثر منه .

وقد سلكتم في هذا التفسير - في مواضع منه - مسلك أهل التأويل ، مع أنه قد وصل إلينا لكم رسالة في ذم التأويل مختصرة ، وهي كافية ومطلعة على أن ما وقع في التفسير ، صدر من غير تأمل وأنه من ذلك القليل وكذلك في التفسير من مخالفة أهل التأويل ما يدل على ذلك .

وأنا اجترأت عليك ، وإن كان مثلي لاينبغي له ذلك ، لأنه غلب على ظني إصغاؤك إلى التنبيه ولأن من أخلاق أئمة الدين : قبول التنبيه والمذاكرة ، وعدم التكبر ، وإن كان القائل غير أهل ، ولأنه بلغني عن بعض من اجتمع بك ، أنك تحب الاجتماع بأهل العلم وتحرص على ذلك ، وتقبل العلم ولو ممن هو دونك بكثير ، فرجوت أن ذلك عنوان توفيق ، جعلك الله كذلك وخيراً من ذلك .

وأعلم أرشدك الله ، أن الذي جرينا عليه أنه إذا وصل إلينا شيء من المصنفات في التفسير أو شرح الحديث ، اختبرناه ، واعتبرنا معتقده في العلو والصفات والأفعال ، فوجدنا الغالب على كثير من المتأخرين ، أو أكثرهم ، مذهب الأشاعرة ، الذي حاصله نفي العلو وتأويل الآيات في هذا الباب ، بالتأويلات الموروثة عن بشر المريسي وأضرابه من أهل البدع والضلال ، ومن

نظر في شروح البخاري ومسلم ونحوهما وجد ذلك فيها ، وأما ما صنف في الأصول والعقائد ، فالأمر فيه ظاهر لذوي الألباب ، فمن رزقه الله بصيرة ونورا ، وأمعن النظر فيما قالوه ، وعرضه على ما جاء عن الله ورسوله ، وما عليه أهل السنة المحضة ، تبين له المنافاة بينهما ، وعرف ذلك كما يعرف الفرق بين الليل والنهار ، فأعرض عما قالوه ، وأقبل على الكتاب والسنة ، وما عليه سلف الأمة وأئمتها ، ففيه الشفاء والمقنع ، وبعض المصنفين يذكر ما عليه السلف ، وما عليه المتكلمون ويختاره ويقرره .

فلما اعتبرنا هذ التفسير ، وجدناك وافقتهم في ذكر المذهبين ، وخالفهتهم في اختيار ما عليه السلف وتقرره ، وليتك اقتصرت على ذلك ، ولم تكبر هذا الكتاب بمذهب أهل البدع ، فإنه لاخير في اكثره ، مافيه من شيء صحيح فقد وجد في كلام السلف وأئمة السنه ما يغني عنه بعبارات تشرح لها الصدور ، وقد يكون لكم من القصد نظير ما بلغني عن الشوكاني رحمه الله ، لما قيل له : لأي شيء تذكر كلام الزيدية في هذا الشرح ؟ قال ما معناه : لا من الإعراض عن الكتاب ، ورجوت أن ذكر ذلك أدعى إلى قبوله وتلقيه .

وقد قيض الله لكتب السنة المحضة ، من يتلقاها ويعتني بها ، وأظهرها مع ما فيها من الرد على أهل البدع وعيبهم ، وتكفير بعض دعاتهم وغلاتهم ، فإن الله قد ضمن لهذا الدين أن يظهر على الدين كله .

والمقصود : أن في هذا التفسير مواضع تحتاج إلى تحقيق ، ولنذكر بعض ذلك :

فمنه : أني نظرت في الكلام على آية الاستواء ، فرأيتك قد أطلت الكلام

في بعض المواضع بذكر كلام المبتدعة النفاة كما تقدم .

ومنه : أن في الكلام تعارضا ، كقولكم في آية يونس : وظاهر الآية على أنه سبحانه إنما استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض لأن كلمة (ثم) للترتيب ، ثم قلتم في سورة الرعد ، وثم هنا لمجرد العطف لا للترتيب ، لأن الاستواء عليه ، غير مرتب على رفع السموات ، وكذلك قلتم في سورة السجدة : وليست ثم للترتيب ، بل معنى الواو .

فلينظر في هذا من وجهين :

أحدهما : أن ظاهره التعارض .

الثاني : أن القول بأن : ثم لمجرد العطف لا للترتيب في هذه الآيا ت ، إنما يقوله من فسر الإستواء بالقهر والغلبة ، وعدم الترتيب ظاهر على قولهم ، وأما السلف وأئمة السنة وأهل التحقق ، فقد جعلوا اطراد الايات في جميع المواضع دليلاً على ثبوت الترتيب ، وردوا به على نفاة الإستواء ، وأبطلوا به تأويلاتهم ، كما هو معروف ومقرر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ، فانظر من أين دخلت عليك هذه العبارات ، وقد رأيت للرازي عبارة في التفسير تفهم ذلك ، فلعلك بنيت على قوله ، وهذا الرجل ، وإن كان يلقب بالفخر ، فله كلام في العقائد قد زل فيه زلات عظيمة ، وآخر أمره الحيرة ، نرجو أنه تاب من ذلك ومات على السنة ، فلا تغتر بأمثال هؤلاء ، قال شيخ الإسلام رحمه الله في المحصل :

« وسائر كتب الكلام ، والمختلف أهلها ، مثل كتب الرازي وأمثاله ، وكتب المعتزلة ، والشيعة ، والفلاسفة ، ونحو هؤلاء ، لايوجد فيها ما بعث الله به

رسوله في أصول الدين ، بل وجد فيها حق ملبوس بباطل » انتهى من منهاج السنة .

وقد قال بعض العلماء في المحصل :

محصل في أصول الدين حاصله   من بعد تحصيله أصل بلا دين

أصل الضلال والشرك المبين وما   فيه وأكثره وحي الشاطين

فكيف تسمح نفس عاقل أن يعتمد على مثل قول هؤلاء .

ومن ذلك : أنكم قلتم في سورة يونس أيضاً : استوى على العرش استواء يليق بجلاله ، وهذه طريقة السلف المفوضين ، وقد تقدس الديان عن المكان ، والمعبود عن الحدود . انتهى

فإن كان المراد بالتفويض ، ما يقوله بعض النفاة وينسبونه إلى السلف ، وهو : أنهم يمرون الألفاظ ويؤمنون بها من غير أن يعتقدوا لها معان تليق بالله، أو : أنهم لايعرفون معانيها ، فهذا كذب على السلف من النفاة ، وإذا قال السلف : كما جاءت بلا كيف ، فإنما ينفون علم الكيفية ، ولم ينفوا حقيقة الصفة ، ولو كانوا قد آمنوا باللفظ المجرد ، من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله ، لما قالوا : الإستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، وأمروها كما جاءت بلا كيف ،فالإستواء لا يكون حينئذ معلوما ، بل مجهولا بمنزلة حروف الجر ، وأيضاً فإنه لايحتاج إلى نفس علم الكيفية ، إذا لم يفهم من اللفظ معنى ، وإنما يحتاج إلى نفس علم الكيفية إذا ثبتت الصفات ، هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ولانشك أن هذا اعتقادك ، ولكن المراد أنه

دخل عليك بعض الألفاظ من كلام أهل البدع ، لم تتصور مرادهم فتنبه لمثل ذلك .

وأما قول القائل : يتقدس الديان عن المكان ، فهذا لم ينطق السلف فيه بنفي ولا إثبات ، وهو من عبارات المتكلمين ، ومرادهم به نفي علو الله على خلقه ، لأن لفظ المكان فيه إجمال يحتمل الحق والباطل ، كلفظ الجهة والعلو ، والكلام في ذلك معروف في كتب شيخ الإسلام وابن القيم ، فارجع إلى ذلك تجده ، ولانطيل به وحسب الاقتصار في هذا الباب على ماورد في الكتاب والسنة ، كما قال الإمام أحمد : لايوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لايتجاوز القرآن والحديث .

ومن ذلك : ما ذكرتم عند قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء﴾(١) وقد قيل إن خلق جرم الأرض متقدم على السماء ، ووجودها متأخر ، وقد ذكرها جماعة من أهل العلم ، هذا جمع جيد يجب المصير إليه ، وفي﴿ حم ﴾ السجدة : الجواب أن الخلق ليس عبارة عن الإيجاد والتكوين فقط ، بل عبارة عن التقدير أيضاً ، والمعنى (قضى) أن يحدث الأرض في يومين ، بعد إحداث السماء ، والجواب المشهور : أنه خلق الأرض أولا ، ثم خلق السماء بعدها ، ثم دحا الأرض وحدها ، والأول أولى ، ففي هذا نوع تعارض .

ومن ذلك : قولكم على البسملة والرحمة إرادة الخير والإحسان لأهله ، وقيل ترك عقوبة من يستحق العقاب ، وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحقه ، فهو على الأول صفة ، وعلى الثاني فعل . انتهى

---

(١) فصلت / ١١ .

وهذا هو التأويل المعروف عن بعض أهل البدع ، يردون هذه الصفات إلى الإرادة ، فراراً مما فهموه ، حيث قالوا : إن الرحمة ورقة القلب لا يصلح نسبتها إلى الله تعالى ، فقال لهم أهل السنة : هذه رحمة المخلوق ، ورحمة الرب تليق بجلاله ، لايعلم كيف هي إلا هو ، ويلزمهم في الإرادة نظير ما فروا منه في الرحمة ، فإن الإرادة هي ميل القلب ، فإما أن تثبت إرادة تليق بالرب تعالى ، وهو الحق في جميع الصفات ، وإما أن تقابل بالتأويل ، وهو الباطل ، والآفة دخلت على النفاة من جهة أنهم لم يفهموا من صفات الرب إلا ما يليق بالمخلوق ، فذهبوا لينفوا ذلك ، ويقابلونه بالتأويلات .

قال شيخ الإسلام : إنهم شبهوا أولاً فعطلوا آخرا ، وأهل السنة والجماعة أثبتوا لله جميع الصفات ، على ما يليق بجلاله ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ، فسلموا من التشبيه والتعطيل .

ومن ذلك : أنكم أكثرتم في هذا التفسير ، من حمل بعض الايات على المجاز وأنواعه ، وقد علمتم أن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، حدث بعد القرون المفضلة ، ولم يتكلم الرب به ولا رسوله ولا أصحابه ولا التابعون لهم بإحسان ، والذي يتكلم به من أهل اللغة يقول في بعض الآيات : هذا اللغة ، ومراده : أن هذا مما يجوز في اللغة ، لم يرد بهذا الحادث ولا خطر بباله ، ولا سيما وقد قالوا : إن المجاز يصح نفيه ، فكيف يليق حمل الآيات القرآنية على مثل ذلك ، وقد أتى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب الإيمان الكبير بما يكفي وشفى ، وذكر الآيات التي استدلوا بها وبعض الأمثلة التي ذكروها ، وأجاب من ذلك بما إذا طالعه المنصف عرف الصواب ، وقواعده أن

المجاز لايدخل في النصوص ، ولايهولنك إطباق المتأخرين ، فإنهم قد أطبقوا على ماهو شر منه ، والعاقل يعرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال ، ومن عرف غربة الإسلام والسنة لم يغتر بأقوال الناس وإن كثرت .

والله تعالى يقول : ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ الآية [1] ومن أبلغ الناس بحثا في المعاني الزمخشري ، وله في تفسيره مواضع حسنه ، ولكنه معروف بالاعتزال ، ونفي الصفات ، والتكلف في التأويلات ، والحكم على الله بالشريعة الباطلة ، مع ماهو عليه من سبه السلف وذمهم والتنقص لهم ، وفي تفسيره عقارب لايعرفها إلا الخواص من أهل السنة ، وقد قال فيه بعض العلماء :

ولــكنه فــيه مجــال لــقائــل ... وزلات سوء قد أخــذن المخانقا

ويشهد في معنى القليل إشارة ... بتكثير ألفاظ تسـمى الشقاشقا

يقـــول فيها الله ما ليس قائلا ... وكــان مجما في الخطاية وامقا

ويشتـم أعـــــلام الأئمة ضلة ... ولاسيـما إن أولجـوه المضائقا

لـئـن لم تداركه من الله رحمة ... لسوف يـــرى للكافرين مرافقا

والمقصود أن الاعتماد على مثل أقوال هؤلاء ، لايليق بالمحقق ، لا سيما فيما يتعلق بمعرفة الله وتوحيده ، وأنت ترى مثل محمد بن جرير الطبري وأقرانه ومن قبله ومن يقربه في زمانه ، لم يعرج على هذه الأمور ، وكذلك

(١) الأنعام / ١١٦ .

المحققون من المتأخرين كابن كثير ونحوه ، وكما هو المأثور عن السلف رحمهم الله تعالى وما استنبطوا منه .

فنسأل الله أن يلحقنا بآثار الموحدين ، وأن يحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة بمنه وكرمه ، وقد اجترأت عليك بمثل هذا الكلام نصحاً لله ورسوله ، رجاء من الله أن ينفع بك في هذا الزمان ، الذي ذهب فيه العلم النافع ، ولم يبق إلا رسومه ، وأنا انتظر منك الجواب ورد ما صدر مني من الخطاب ، ثم إني لما رأيت الترجمة ، وقد سُمِّيَ فيها بعض مصنفاتك ، وكنت في بلاد قليلة فيها الكتب ، وقد ابتليت بالدخول في أمور الناس لأجل ضرورتهم ، كما قيل : خلا لك الجو فبيضي واصفري ، والتمس من جنابك تفضل علينا ببلوغ السول من أقضية الرسول ، والروضة الندية شرح الدرر البهية ، ونيل المرام شرح ايات الأحكام ، فنحن في ضرورة عظيمة إلى هذه كلها ، فاجعل من صالح أعمالك معونة إخوانك ومحبيك بها ، وابعث بها إلينا مأجوراً إن شاء الله تعالى ، وليكن ذلك على يد الأخ أحمد بن عيسى ، الساكن في مكة المكرمة المشرفة ، واكتب لنا تعريفاً بأحوالكم ولعل أحدا منكم من يتلقى هذا العلم ويعتني به ويحفظه عنك ، واحرص على ذلك ، طمعاً أن يجمع لك شرف الدنيا والآخرة ، ونسأل الله أن يهب لك ذلك .

ثم اعلم أني قد بلغت السبعين ، وأنا في معترك الأعمار ، لا آمن هجوم المنية ، ولي أولاد ثمانية : منهم ثلاثة يطلبون العلم : كبيرهم سعد المذكور أولا ، ويليه عبد العزيز ، وتحته عبد اللطيف ، ونرجو أنهم أهل الكتب ، وممن يعتز بها ويحفظها ، وبقيتهم صغار منهم من هو في المكتب ، ومن دعائنا : ﴿ ربنا

هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ (١) ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ (٢) لاتنسنا من صالح دعائك كما هو لك مبذول .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم(٣) .

---

(١) الفرقان / ٧٤ .

(٢) البقرة / ١٢٨ .

(٣) نص الرسالة مأخوذ من كتاب « قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر » لصديق خان القنوجي ص ١٣ - ٢٠ .

ثبت المراجع

- القرآن الكريم .

- ابن الأثير : مجد الدين ، **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، د.ط ، أنصار السنة ، لاهور .

- الآجري : ، **أخلاق العلماء** ، د . ط ، مكتبة التراث الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ .

- الأصفهاني : الراغب ، **مفردات ألفاظ القرآن** ، ط١ ، دار القلم ، دمشق ،١٤١٢هـ.

- الألباني : محمد ناصر الدين ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ط٤ / المكتب الإسلامي بيروت ، ١٤٠٥هـ .

- الألباني : محمد ناصر الدين ، **صحيح الجامع الصغير وزيادته** ،ط٢ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .

- الباجي : أبوالوليد ، **المنهاج في ترتيب الحجاج** ، ط٢ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٧م .

- البطليوسي : ابن السيد ، **التنبيه على الأسباب التي أدت إلى الاختلاف بين المسلمين**، ط٢ ، دار المريخ ، الرياض ، ١٤٠٢هـ .

- البغدادي : عبد القاهر بن طاهر ، **الفرق بين الفرق** ،د.ط ، د.ت ، دار المعرفة ، بيروت .

- البغدادي : الخطيب ، **تاريخ بغداد** ، د.ط ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٠٦هـ.

- البغدادي : الخطيب ، **الفقيه والمتفقه** ، د.ط ، د.ت ، دار الكتاب العربي .

- التوحيدي : أبو حيان ، الإمتاع والمؤانسة ،

– ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ، **اقتضاء الصراط المستقيم** ، ط٢ ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤١١هـ .

– ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ، ط١ / دار الفاروق ، الطائف ،١٤١٠هـ.

– ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ، **درء تعارض العقل والنقل** ،ط١ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠١هـ .

– ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام** ،

– جلال : سعد ، التوجيه النفسي والتربوي والمهني ،

– الجليل : عبدالعزيز ، **وقفات تربوية** ، ط٢ ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤١٢هـ .

– ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

– ابن حزم : محمد بن علي ، الأحكام في أصول الأحكام ،

– الحنبلي : ابن رجب ، **فضل علم السلف على الخلف** ، ط١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .

– ابن حزم : **الأحكام في أصول الأحكام** ، ط٣ ، مطبعة الإمام ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ

– ابن خلدون : عبدالرحمن ، **مقدمة ابن خلدون** ، ط٣ ، دار نهضة مصر ، القاهرة .

– الذهبي : شمس الدين محمد ، **سير أعلام النبلاء** ، ط٦ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤٠٦هـ .

– زمزمي : يحيى ، **آداب الحوار في ضوء الكتاب والسنة** ، رسالة ماجستير غير منشورة من قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى ، مكة ، ١٤١٣هـ.

- أبو زيد : بكر عبدالله ، **التعالم وأثره على الفكر والكتاب** ، ط ٣ ، دار الراية ، الرياض ، ١٤١٢هـ .

- أبو زيد : بكر عبدالله ، **الرد على المخالف** ،ط١ ، دار الهجرة ، الخبر ، ١٤١٢هـ .

- زيدان : عبدالكريم ، **مجموعة بحوث فقهية** ، د.ط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ.

- ساجقلي زادة : محمد بن أبي بكر المرعشي ، ترتيب العلوم ، ط١ ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ .

- السعدي : الرحمن ، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** ، د.ط ، دار المدني، جدة ، ١٤٠٨هـ .

- الشاطبي : أبي إسحاق ، **الأعتصام** ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ.

- الشاطبي : أبي إسحاق ، **الموافقات** ، د.ط ، د.ت ، دار المعرفة ، بيروت .

- الشنقيطي : محمد الأمين ، **آداب البحث والمناظرة** ، د.ط ، د.ت ، دار ابن تيمية ، القاهرة .

- الشوكاني : محمد بن علي ، **أدب الطلب ومنتهى الأدب** ، د.ط ، د.ت ، مكتبة القرآن ، القاهرة .

- الشوكاني : محمد بن علي ، **فتح القدير** ، د.ط ، د.ت ، مكتبة المعارف ، الرياض.

- الصوفي : حمدان ، **الموضوعية في العلوم التربوية** ، رسالة ماجستير بقسم التربية الإسلامية بجامعة أم القرى ، غير منشورة ، ١٤٠٩هـ .

عبد الحميد : جابر وأحمد خيري كاظم ، مناهج البحث في التربية وعلم النفس .

- العسكري : أبو هلال ، ديوان المعاني ، د.ط ، د. ت ، عالم الكتب .

- العسقلاني : ابن حجر ، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ، ط١ ، دار الريان ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ .

- غبريال : محمد ، الموسوعة العربية الميسرة ،

- الغزالي : أبو حامد ، **إحياء علوم الدين** ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٦هـ.

- ابن فارس : ابو الحسن أحمد ، **معجم مقاييس اللغة** ، د.ط ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ .

- الفيروز أبادي : مجد الدين ، **القاموس المحيط** ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ .

- الفيومي : أحمد بن محمد ، **المصباح المنير** ، د.ط ، د.ت ، المكتبة العلمية ، بيروت.

- ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم ، عيون الأخبار ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

- القرطبي : محمد بن أحمد ، **الجامع لأحكام القرآن** ، د.ط ، د.ت ، دار الكتاب العربي .

- القرطبي : ابن عبد البر ، **جامع بيان العلم وفضله** ، د.ط ،د.ت ، دار الكتب العلمية، بيروت .

- القنوجي : صديق حسن خان ، **أبجد العلوم** ، د.ط ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق .

- صديق خان : قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ، ط١ ، ١٤٠٤هـ .

- ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبي بكر ، **بدائع الفوائد** ، د.ط ، د.ت ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

- ابن القيم : شمس الدين محمد ، **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** ،

- ابن القيم :شمس الدين محمد ، **الطرق الحكمية** ، د.ط ،د.ت ، دار المدني ، القاهرة .

- ابن القيم : شمس الدين محمد ، **الوابل الطيب من الكلم الطيب** ، د.ط ، د.ت ، مكتبة دار البيان ، دمشق .

- كارنيجي : ديل ، **كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس** ، د.ط ، د.ت ، دار لبنان ، ١٩٧٩م .

- ابن كثير : اسماعيل ، **تفسير القرآن العظيم** ، د.ط ، د.ت ، الشعب ، القاهرة .

- الكفوي : أبو الكفاء ، **الكليات** ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ .

- اللكنوي : عبدالحي ، **الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة** ،

- المعلمي : عبدالرحمن ، **القائد إلى تصحيح العقائد** ، ط٣، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ .

- المناوي : عبدالرؤوف ، **فيض القدير** ، د.ط ، د.ت ، دار الفكر ، بيروت .

- موسى : فاروق عبدالفتاح ، **أسس السلوك الإنساني** ،

- الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، **أصول الحوار** . ط٣ ، ١٤٠٨هـ .

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع :

أصول أدب الخلاف في التربية الإسلامية :